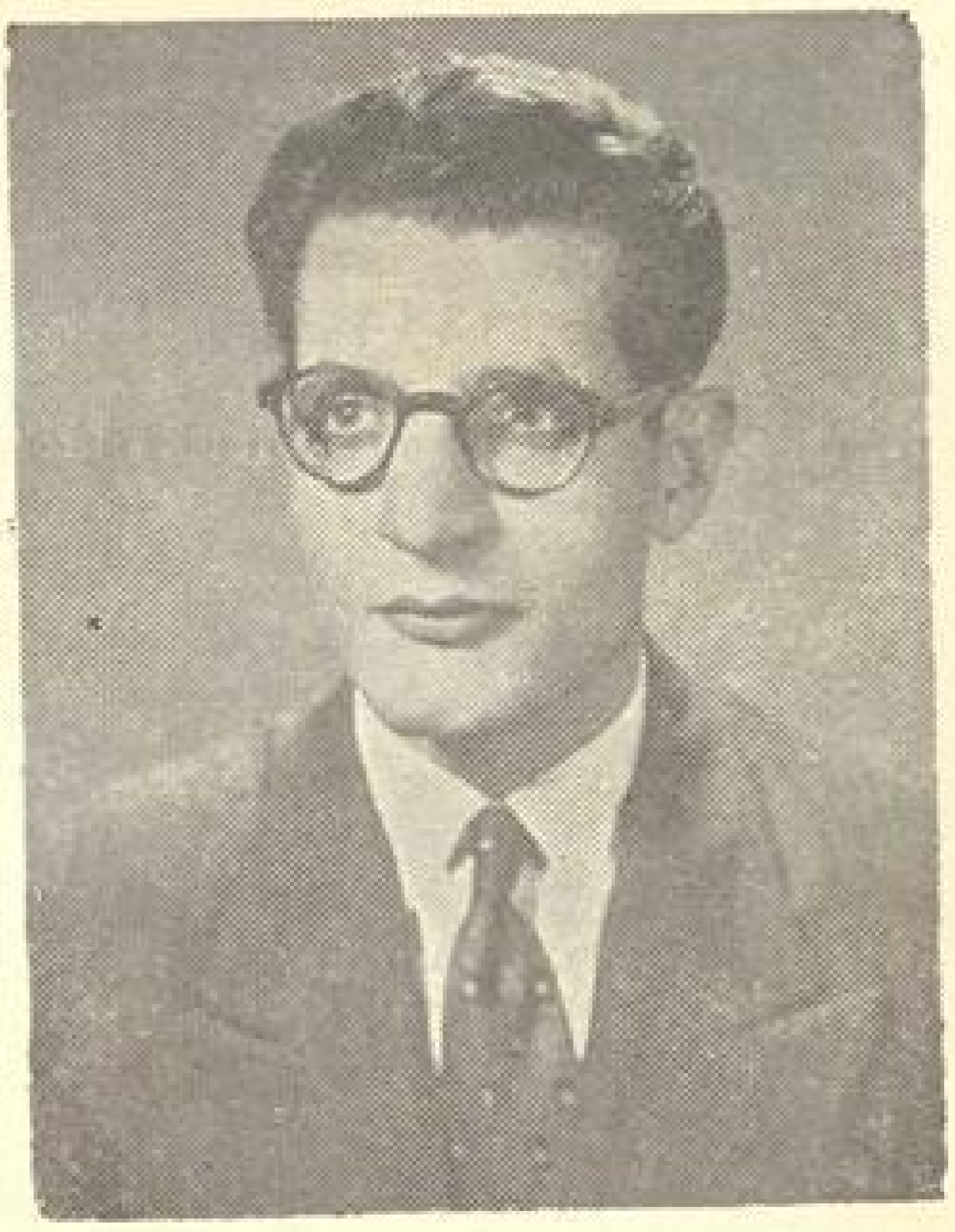


الدكتور محمد رجب البيومي

اثر المقدمة في اسلوبنا الكتابي

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

اذا قرات كتابا أندلسيا وجدته يتحدث عن ابن خلدون علما من اعلام الفكر الاندلسي ، واذا قرات تاريخ الادب المصري في عصر المماليك وجدت الحديث عن ابن خلدون قطبا من الاقطاب بوادي النيل ، واذا ألممت بالحركة الفكرية في المغرب شاهدت ابن خلدون قائدا من كبار قادتها في تونس ، وذلك يؤكد منزلة هذا العملاق في الفكر العربي ، وحرص كل قطر من الاقطار على فخر انتمائه ، ونحن هنا نتابع الاستاذ احمد امين في عده اندلسيا ، لانه كما قال في ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٢٥ من اصل اندلسي بأشبيلية وهو وان ولد في تونس فقد درس على علماء اندلسيين ، واقام بالاندلس زمنا من احفل حياته ، فالاندلس به أولى وقد عاش بمصر غريبا في زيه وطباعه ولهجته ، حتى اذا وفد مع علمائها على « تيمورلنك » قارن بينه وبينهم في المظهر واللهجة ، ولولا مخالفته اياهم في مرأى العين ما لفت نظر الطاغية التتري لان الحديث كان جماعيا عن طريق الترجمان ، وهو مما يؤكد ان الرجل لم يتمصر فيكسبه المشرق !

على اننا نتحدث عنه الان لنبرز أثره القوي في نهضة مصر الادبية في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ! ولك أن تعجب معي كيف عاش ابن خلدون في القاهرة ، وشرح العلم بالازهر وتولى قضاء المالكية عدة مرات وتنقل في شتى مدنها ليرعى شئون منصبه ، ويجني حصاد اوقافه ثم لا يؤثر ذلك في حياته تأثيرا ذا بال حتى اذا مضت القرون ، واقبل عصر البعث كانت مقدمة ابن خلدون صاحبة التأثير الرنان فتضع للكتاب اسلوبا جديدا وللكتابة منهجا واضح الاغراض .

لقد مكث الاستاذ الكبير المغفور له الشيخ احمد الاسكندري استاذا للادب العربي ثلاثين عاما بدار العلوم ، وهو في كل عام من اعوامه الثلاثين يملي على طلابه هذه الفقرات من مذكرته الشهيرة عن الادب العباسي .

« كان ابن خلدون احد نوابغ العالم الذين عاشوا افذاذا في عصور مظلمة لم يعضدهم فيها مشاكل ، او تعرف قدرهم أمتهم ، فكانت حياتهم بين الامة التي عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة ، فقد اداه نفوذ خاطره وصدق نظره الى الاهتداء الى كثير من علل الحوادث التي تنتاب الاجتماع البشري وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه ، حتى وقرت في نفسه بصور قوانين عامة واقيسة مطردة ، سال بها قلمه دون ان يفطن لها اهل قرنه ، ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع الا بعد انقضاء عدة قرون .

ولم يكن الانتفاع بمقدمته واسلوب كتابته فيها في وقت أظهر منه في العصر الحاضر فقد كان اسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية في تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الادبية والعربية والسياسية من كتاب العربية في مصر والشام وتونس وخاصة من ألف منهم في مثل موضوعاته أو كتب في الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب ولانه ارحب اسلوب ادبي علمي للنقلة والمترجمين عن اللغات الاجنبية المحافظين على اصل المعنى ، فهو كالاستاذ الاكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الاخيرة » .

هذا ما قاله استاذنا السكندري ينقله عنه تلميذه الباحث المفضال الاستاذ محمود رزق سليم في المجلد السادس من موسوعته عن عصر المماليك ثم يقول تعقيبا عليه ص ٢٣٥ .

« ولا ريب في ان ادباء النهضة تأثروا ـ الى جانب ما تأثروا به ـ بآراء ابن خلدون ومنها آراؤه في نثر معاصريه فكان لذلك اثر مضاعف جعلهم يتجهمون لاسلافهم وينظرون اليهم نظرة عابسة ، ويرمون ادبهم بالضعف والانحطاط ويتأبون على دراسته واذا اخذوا في دراسته اخذوا وآراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم فيدرسونها وبأقلامهم لوثة من هذه الاراء وبدهي ان تأتي النتيجة وفق مقدماتها ، والاحكام رهن مقوماتها ، وللدكتور علي عبد الواحد وافي ملاحظة طريفة في هذا المجال فقد راى ان اخطاء ابن خلدون الاسلوبية في المقدمة قد انتقلت ايضا

الى اقلام كتابنا وكأنها صواب لا يقبل التصحيح مما يدل على الثقة المفرطة في مقدرته والولوع الهائم باحتذائه والدكتور يبسط بعض هذه الاخطاء حين يقول ص ٢٤٨ من كتابه عن ابن خلدون .

« ويلاحظ ان اسلوب ابن خلدون قد انتقل الى كتابنا بجميع ما فيه حتى بأخطائه نفسها ، فمن ذلك مثلا التراكيب المخطئة الاتية : « لا بد وان » ، « لا يترك شيئا الا واحصاه » ، « لم يقتصر على هذا بل واخذ يعمل كيت وكيت » ، وهذه الشروط تتوفر في ، « يوقفنا على كذا » « وهذا الامر وان كان كذا الا انه كيت وكيت » ، وان كاتبا يقبل منه الخطأ ويحتذي دون مناقشة لذو سيطرة بعيدة النفوذ ! واذا كان من المعقول ان نجعل صوابه دليل سبقه فان من الطريف هنا ان يكون خطئوه كذلك يتضمن هذا الدليل » .

ولايضاح تأثير المقدمة في النهضة الادبية المعاصرة ، نذكر انها طبعت لاول مرة بمصر سنة ١٨٥٧ م. وكانت الاذهان اذ ذاك متطلعة الى عهد جديد تلوح تباشيره فيما اعقب احتكاك مصر بالحضارة الاوروبية في عصر اسماعيل ، ثم جاء جمال الدين الافغاني لينشر افكاره عن الاستقلال والحرية والكرامة ومحاربة الاستعمار والتجبر وحكم الفرد مما يؤدي الى فساد العمران كما يقول ابن خلدون : وقد وجه الثائر الافغاني تلاميذه الى الكتابة السياسية في محاربة الاستبداد والتجبر ، والنعي على الطغاة من المحتلين وصنائعهم من الحاكمين . فاتجه الادب العربي من ناحية المضمون وجهة جديدة بعد ان كان مقصورا على المراسلات الاخوانية والاوصاف الانشائية التي تقف عند الظواهر التافهة دون ان تعمد الى الدقة والتحليل ، وبدأ الادب الاجتماعي المصلح والتفكير السياسي الثائر يأخذ طريقه الى الاسماع مقلدا اسلوب ابن خلدون في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج ورصد الظواهر وتعليلها ؟

واذا كان ابن خلدون قد تحدث في مقدمته عن السياسة والملك وعاقبة الترف واثر الظلم والاضطهاد وحكم الفرد وعمر الدولة واسباب فنائها وتدميرها ، وبغي السلطان ورياء الحاشية فانه بذلك قد امد تلاميذ جمال الدين باكثر ما يبتغون ، واضاف افكارا صائبة في الحرية تسيل بها الاقلام في انهار الصحف موقظة داعية ، فوجد دعاة الثورة سبيلا مقيدا للقول فأفرغوا حماستهم في اتجاهه ، اما من ناحية الشكل فقد انطلق اسلوب ابن خلدون مسترسلا سمحا دون قيد بديعي او حلية لفظية ، فقدم بذلك الانموذج المختار لما يريده جمال الدين ، ومضى تلاميذه يحاكونه عذوبة واسترسالا ؟ فتحرروا من ارهاق السجع والازدواج وكسوا قيود الجناس والطباق ، وساعدهم على هذا النهج المتحرر ما يذكو في صدورهم من لهيب الحرية والعزة اذ ان الجذوة الملتهبة التي اذكاها جمال الدين في نفوس تلاميذه وهم صفوة الادباء لعهده كانت اعظم من ان يخمد شرارها تحت رماد التكلف اللفظي والعبث البديعي ! وما بقي لدينا من اثار جمال الدين على عجمته قريب من منهج ابن خلدون على عربيته — في السرد والاسترسال !! .

واذا كان الاستاذ محمد عبده أنبه تلاميذ الافغاني ذكرا واصحهم فكرة ، واقومهم طريقة ، فسنتخذ من اسلوبه دليلا على تأثير ابن خلدون في الحركة الادبية لعهده اذ ننقل هنا اثرين موجزين من آثاره : احدهما قد خطه الامام في مطلع شبابه قبل ان يقع على اسلوب المقدمة ، وثانيهما مما كتبه الاستاذ بعد ان نضج فكره واستوى على سوقه . ونفحت عليه المقدمة الخلدونية من سدادها الصائب ما احكم نسجه واوثق عراه .

كان الشيخ محمد عبده — لاول عهده بالكتابة ينشر مقالاته بجريدة الاهرام ، فيهتم بالمقدمات الطويلة ويتناول الاغراض الثانوية ، ويحرص على الصبغ البديعي لا يشذ عن طريقة معاصريه متأثرا بمشاهيرهم في التنميق والتلفيق كان يقول في موضوع عن الكتابة والقلم سنة ١٨٧٦ « ولما انتشر نوع الانسان في اقطار الارض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا الى التخاطب في شئونهم مع تنائي امكنتهم ، وتباعد اوطانهم فكان لسان المرسل اذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبديء المرسل وما يعيد ، وان حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ، بدون ان ينقص او يزيد ، او يبعد القريب او يقرب البعيد ، فكم من رسول اعقبه سيف مسلول ، او عنق مغلول ، او حرب تخمد الانفاس ، وتعمر الارماس ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، فالتجئوا الى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الامر اليه فيما به تتكلم » .

فما ترى في اسلوب الشيخ غير انه يعترك في غير ميدان فيتحدث عن فضيلة الكتابة بالقلم كأنها من الخفاء بحيث ينبه عنها في مقال سيار ، يتخذ له من الاسجاع حلى موشاة يظنها تحدث اقوى الرنين في الاسماع . واعمق التأثير في النفوس ... لقد كان من حظ الادب دون نزاع ان يعدل عن اسلوبه هذا عرضا وتعبيرا الى اسلوب اصلاحي حي — يتحدث عن ظلم الرعاة وبغي الحاكمين — قريب من نهج ابن خلدون اذ يقول في العدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها بباريس مع استاذه جمال الدين : « ان الامة ليس لها في شئونها حل ولا عقد ، وانما هي خاضعة لحاكم واحد ، ارادته قانون ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك امة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير فتعتورها السعادة والشقاء ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر وكل ما يعرض عليها من هذه الاحوال خيرها وشرها فهو تابع لحال الحاكم ،

فان كان حاكمها اصيل الراي على الهمة رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الامة بسياسة العدل ورفع فيها شأن العلم . ومهد لها طريق اليسار والثورة ، وفتح لها ابوابا للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في افرادها المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة واباء الضيم ورفعهم الى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهية وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير . وان كان حاكمها جاهلا سيء الطبع سافل الهمة ، جبانا ضعيف الراي احمق الجنان خسيس النفس معوج الطبيعة اسقط الامة بتصرفه الى مهاوي الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح ابوابا للعدوان فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الاخلاق ، وتخفض الكلمة ويغلب اليأس فتمد اليها انظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في احشاء الامة . عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها واراد الله بها خيرا اجتمع أهل الراي وارباب الهمة من افرادها ، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل ان تنشر الرياح بذورها واجزاءها السامة القاتلة بين جموع الامة فتميتها وينقطع الامل من العلاج » .

هذا الاسلوب وما جرى مجراه في الدفاع عن الحرية من اقلام مجاهدة تحمل روح ابن خلدون وطابعه ، ولا اعني بذلك أن ينهج نهجه في التحليل والاستدلال ولكنه يعيش في جوه ويستلهمه ، وينطق بأثره الواضح احيانا ، والخفي حينا ، وانا اذ اقرر ذلك اوجه النظر الى ناحية هامة من نواحي التأثير الخلدوني اذ ان بعض الباحثين يقف بتأثير المقدمة عند الصياغة والتركيب فقط ويرى أثرها لا يتعدى التحرر من القالب البديعي وهذا غير الواقع لان الاقلام التي اتجهت وجهة الاصلاح السياسي والاجتماعي ، قد وجدت معينها الدافق في افكار ابن خلدون ، واذا كان قد اشتهر عنه تفوقه في ادراك حقائق الاجتماع مما يسعف الكاتبين في اصلاح المجتمع المصري فان آراءه السياسية لا تقل خطورة عن ارائه الاجتماعية .

وبعبارة اخرى فان الاصلاح السياسي في منطق ابن خلدون نتيجة من نتائج الاصلاح الاجتماعي ، فكلا الاصلاحين قضية واحدة ذات مقدمة ونتيجة ومن الذائع المشتهر ان اراء المفكر العربي في حقل السياسة والاجتماع قد وجدت من يتحمس لها تحمسا يصل بصاحبها الى ذروة العبقرية والابداع حتى اعترف به واضعا اول لعلم الاجتماع واقيمت الموازنات الطويلة بينه وبين فلاسفة هذا العلم في اوربا ، اذ قرنه الباحثون بأرسطو وأفلاطون وقال عنه (غوميلوفتس) احد زعماء علم الاجتماع بألمانيا : « ان ابن خلدون يعتبر مفكرا عصريا بكل معنى الكلمة . انه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين ، وابدى آراء عميقة جدا لا اقول قبل (كانت) فحسب بل قبل (فيكو) ايضا ، والحقيقة ان ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم بعلم الاجتماع » .

وقال (فارد) كبير علماء الاجتماع الامريكان « كانوا يظنون ان اول من قال بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو) او (فيكو) في حين ان ابن خلدون قال بذلك واظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بقرون ، حينما كان الغرب مستسلما للفلسفة الدرسانية والكلمانية استسلاما تاما » .

وليس لي ان املأ الصفحات بمثل هذه الاعترافات المنصفة التي سجلها مفكرو الغرب من امثال استفانو كولوزيو الايطالي ، وناثانيل شميث الامريكي وتوينبي الانجليزي لعبقرية ابن خلدون ، ولا ان اشير الى المقارنات التي عقدها كبارهم بين ميكافيللي وارسطو ومونتسكيو وبين صاحب المقدمة فقد شاعت وذاعت حتى اصبح ترددها المتكرر لا يأتي بجديد ، وانما اريد ان اقول : ان صاحب هذه العقلية الفذة قد انقذ الاسلوب الادبي انقاذا ناجحا حين جعل الفكرة عنصرا عاما من عناصره او حين جعل صاحب القلم مفكرا ذا رسالة ، وليس صاحب اسجاع ومترادفات وقد ظل اثره الاسلوبي في قومه ضئيلا لا يكاد يحس حتى استيقظت العربية من اغفاءتها الطويلة في نهضتها المعاصرة وقدر لها ان تحتذي مقدمة ابن خلدون فتنتقل من دور الى دور .

وطبيعي ان جميع الرواد في النصف الاخير من القرن التاسع عشر لم يكونوا من محتذي اسلوب المقدمة ، بل ان فيهم من لم تظهر على اسلوبه سمة واحدة من سماتها كعبد الله فكري وابراهيم المويلحي وحمزة فتح‌الله والنديم ، ولكن صفوة الكتاب اذ ذاك كجمال الدين ومحمد عبده واديب اسحق وعبدالرحمن الكواكبي قد نشروا اسلوب المقدمة كل جهد طاقته !! وكان من حسن الحظ ان يتتلمذ على جمال الدين ومحمد عبده بصفة خاصة اكثر كتاب الجيل اللاحق فيردوا موردهما ، وينهجوا منهجهما ، واذ ذاك يقفز الادب قفزته الطافرة ، ويتحرر الاسلوب نهائيا من اوهامه ، وتصدق كلمة استاذنا السكندري حين قال « لم يكن الانتفاع بمقدمته واسلوب كتابته في وقت اظهر منه في العصر الحاضر فقد كان اسلوب ابن خلدون هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين فهو الاستاذ الاكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الاخيرة » .

ويعن لنا ان نسأل في هذا المجال ؟ لماذا لم يؤثر اسلوب ابن خلدون في معاصريه ، كما اثر في اسلوب الادب المعاصر ، والرجل لم يكن خامل المكانة مجهول المنزلة بين قرنائه حتى يفقد تأثيره النفاذ بل كان كما قال عنه منافسه الخطير الوزير الاديب لسان‌الدين بن الخطيب

في كتابه الاحاطة في تاريخ غرناطة « باهر الخصال رفيع القدر اصيل المجد ، وقور المجلس ، عالي الهمة ، عزوفا عن الضيم صعب المقادة ، قوي الجأش طامحا لفن الرياسة خاطبا للحظ ، متقدما في فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ، مفري بالتجلة ، فأما نثره فخلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن ابداع يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبهة البداءات بالخواتيم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع ، واما نظمه فقد نهض لهذا العهد قدما في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار اساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة » .

ولعل السبب في فقد تأثيره اذ ذاك انه دعا الى منهج جديد في التحرر ، وصاحب الجديد مقصي السبيل نائي الاجابة ، اذ ان معاصريه قد درجوا على حب الصنعة والزخرف ، واصبح الاعتكاف في البديع لديهم ايمانا لا يتزلزل ، فهم عن غيره منصرفون ، ولو نادى به عملاق خطير كابن خلدون ، لا نقول ذلك في الاسلوب الادبي وحده ، بل في كل منهج جديد في مختلف العلوم والفنون والاداب يفتح العيون على آفاق لم تكتشف بعد . وللتدليل على ذلك نذكر في تاريخ النحو الاندلسي رجلين كبيرين ، احدهما مجدد خطير وهو (ابن مضاء) القرطبي ، الذي نادى بابطال نظرية العامل وذهب الى ان الذي يسبب الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وجزم انما هو المتكلم نفسه لا ما يزعمه النحاة من الافعال واشباهها ، وبين ما جرت اليه نظرية العامل من التعسف في التأويل والشطط في العلل والاقيسة ، واكثرها مرفوض ان استقام من جهة تطرق اليه الخلل من جهة ثانية !!

وقد الف في مذهبه ثلاثة كتب ، منها كتابان كبيران مفصلان طواهما الزمن ، وكتيب صغير ظل مجفو المنزلة حتى عثر على جزء منه في المكتبة التيمورية ، ونشره الدكتور شوقي ضيف منذ سنوات !! هذا البحاثة المجدد لم يجد من يستمع الى دعوته الاصلاحية او من ينسخ كتبه فقط للاجيال اللاحقة ، فضاعت صفحاتها بددا في خضم الزمن لانه صاحب مذهب طريف ! اما الرجل الثاني فهو ابن مالك الاندلسي صاحب الالفية الشهيرة ! فقد كان جماعا لاراء النحاة حسن الترتيب لما يتناول من القواعد المقررة، لم يأت بجديد في تحرير مذهب او تأصيل بحث ، ولكنه قرأ فوعى ثم جمع فأوعى ، فسارت مؤلفاته النحوية مسيرة الشمس ، وظلت تجتاب القرون منذ القرن السابع الهجري الى الان ، وقد كان الازهر لا يزال يدرس اثاره في الاقسام الابتدائية والثانوية والعالية محاطة بالشروح والتقريرات حتى هذه الساعة !! فاذا فقد ابن مضاء تأثيره في معاصريه ، فقد التقى مع ابن خلدون في العمل والنتيجة ، ومثلهما الكثرة الكاثرة من المجددين الذين دفنتهم ايامهم الجائرة في حفائر الاهمال ، حتى هبت الريح العاصفة فكشفت التراب عن الذخائر المطموسة واقبل عليها الراغبون مقدرين ! .

ويخيل الي ان تردد ابن خلدون قبل تأليف المقدمة بين الترسل والسجع قد ضاءل من تأثيره في معشره اذ رويت عنه مراسلات بديعية نحا فيها منحى معاصريه ، وقد حفظت عنه وتعورفت بين الناس بل في تاريخه الكبير كان يميل الى السجع في بعض الفقرات على قلة . واختار لتاريخه اطول عنوان مسجوع لكتاب عرفه القراء ونذكر هنا نموذجا من كتابته المسجوعة في رسالة بعثها الى لسان الدين ابن الخطيب بدأها بقوله :

« سيدي مجدا وعلوا ، وواحدي ذخرا ومرجوا ، ومحل والدي برا وحنوا ما زال الشوق منذ نأت بي وبك الدار ، واستحكم بنا البعاد ، يرعى سمعي انباءك ويخيل لي من ايدي الرياح تناول رسائلك ، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع وعهد غير مضاع ، وود ذي اجناس وانواع » .... الخ .

ونحن في ميزان النقد المخلص لا نؤاخذ الكاتب على التزامه قيود البديع في مراحله الاولى قبل ان يكون صاحب مذهب يؤثره لان ابعد المتطرفين في الدعوة الى الجديد ، كان يتلقى دراسته الاولى على النهج الذي نادى بالتخلص منه ، بعد ان فتقت الايام ذهنه بالتأمل والتمحيص ! فكل ما صدر عنه قبل ان يهتدي الى منهجه الخاص لا يزحزح من دعوته التجديدية في عيون الناقدين ونحن حين نطالع اراء ابن خلدون بالمقدمة في الاسلوب الادبي المختار نلمس من ثباته واصالته وتمكنه ما نعتبره به قائد دعوة وحامل راية يحاول ان ينقل الكاتبين من مجال الى مجال فهو يقول :

« واعلم ان لكل واحد من هذه الفنون يعني فنون الشعر والنثر اساليب تختص به عند اهله ولا تصلح للفن الاخر ولا تستعمل فيه ، وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين مدى الاغراض والمحمود في المخاطبات السلطانية والترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فان المقامات مختلفة ، ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب او ايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة واما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على اساليب الشعر فمذموم ، وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم ، وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد امده في البلاغة ، وانفساح خطوه فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزين بالاسجاع والالقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك ! واكثر من اخذ بهذا

رائف

مهداة الى بنتي الغالية ذكاء المحاسني ولصديقي القديم الاستاذ ألبير أديب الذي صار جدا

★

ابن بنتي « ذكاء » يدعى (برائف) وهو في العين والجوانح واقف
صاح (جدو) فطار لبي وأيقنت بأني جد اذن غير زائف
وتمنيت أن قلبي له درع وأني حصنته بالمصاحف
أتراني أعيش حتى أراه في رعيل الفتيان شهما يساعف
قيل حب الحفيد أغلى وأحلى ومزيج الحنان فيه محالف
من ثلاثين في السنين تعلقت (بهوغو) وهو البديع الواصف
وبديوانه عن الجد شعر لا يدانيه ذو تليد وطارف
يتمنى كل امرىء انه الجد ومنه القبيل نسل مضاعف
في بكور الصباح ينهض محبوبي ومن وجهه ابتسام مشارف
فينادى (ماما) و (ته ته) بلحن ما أحيلى صباحه في المعازف
لي منه تقبيلة قبل ان تغدو به حاضنات بيت ملاطف
و (الندى والهدى) بأختيه زهر (عطر) العمر بالنسيم الوارف

أنا فلسفت حبنا لحفيد انه رجعة لعمر والف
نحن نحيا فيه بعهد جديد في مساء لنا لصبح خاسف

يا حبيبي الصغير نحن الاحبا فترأف بنا فانك (رائف)

دمشق

زكي المحاسني

الفن وبالغ فيه في سائر انحاء الكلام كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى انهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس » .

والكاتب الذي يحمل هذه الحملة على البديع ! يفرق فرقا واضحا بين البديع المتكلف المستكره ، والبديع الفطري المطبوع فيرى في الاول ركاكة واسفافا وفي الثاني جمالا وابداعا وانه ليفصح عن ذلك حين يقول — ببعض التصرف :

« ويتبع تراكيب الكلام في هذه السجية ضروب من التزين والتحسين فيحصل للكلام لذة ، وجمال زائد على الافادة وهذه الصفة موجودة في الكلام المعجز ، وفي كلام الجاهلين بعد كمال الافادة لكن عفوا وبغير تعمد ، وفي كلام الاسلاميين عفوا وقصدا ، والمنثور في الجاهلية والاسلام كان مرسلا معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه حتى نبغ ابراهيم بن هلال الصابي فتعاطى الصنعة والتقفية ، ثم انتشرت الصناعة بعده والكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف قاصر عن المطبوع لقلة الاكتراث بأصل البلاغة والحكم في ذلك الذوق » .

لقد كان ابن خلدون نابغة عصره دون نزاع ثم قدر له ان يقود النهضة الادبية فى عصرنا الحديث ليصبح في رحاب التاريخ الادبي نابغة العصور !! طيب الله ثراه .

الفيوم — ج٠ع٠م٠ محمد رجب البيومي



وديع فلسطين

نهايات ثلاث

بقلم وديع فلسطين

* * *

ثلاث نهايات غريبة ختمت حياة ثلاثة من كبار المفكرين المعاصرين . واغرب ما فيها ان هذه النهايات الثلاث قد قررها اصحابها لانفسهم وارتضوها وسعوا اليها ولم يحاولوا الانثناء عنها . وهي ان اومأت الي بشيء ، فانما تومىء الى جانب من جوانب الشقاء التي يعاني منها « ذوو العقول » ، وذو العقل يشقى كما قال الشاعر !

ففي العقد الثالث من هذا القرن ، عرفت المجتمعات الادبية باحثا عميقا كان يمثل بمفرده ظاهرة فذة في الفكر المعاصر ، هو الاديب التركي المستعرب الدكتور اسماعيل احمد ادهم ، الذي كان يجيد طائفة غير قليلة من اللغات ، وكان على اطلاع واسع على الآداب الغربية ، وكان فلسفي التفكير جريء الراي ، وكانت له دراسات نقدية جادة بهرت مطالعيها في ذلك الحين ، منها دراساته عن خليل مطران وتوفيق الحكيم (بالاشتراك مع الدكتور ابراهيم ناجي) وعن الدكتور احمد زكي ابي شادي (باللغة الانكليزية) ، وغيرها من البحوث الاخرى التي قابلها القوم التقليديون بجهامة واستنكار .

وذات صباح قرأ الناس في الصحف ان شاطىء البحر قد استقبل جثة غريق القتها عليه الامواج ، وتبين فيما بعد ان هذا الغريق هو الدكتور اسماعيل احمد ادهم الذي اقتضب عمره اقتضابا .

واذكر انني كنت ازور صديقي الشاعر خليل مطران بك لاهديه عشر نسخ من كتاب اسماعيل احمد ادهم عنه ، وهي نسخ استنقذناها من اسنان الجرذان في مخازن مطبعة المقتطف بعد ما اتت على جميع النسخ المطبوعة من هذا الكتاب الذي نسي بوفاة صاحبه . ولم يكد مطران يرى الكتاب لاول مرة (وكانت فصوله قد نشرت متتابعة في المقتطف في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠) حتى عبرت وجهه سحابة حزن ، وقال : مسكين اسماعيل ادهم . لقد عمل بي عملا عظيما ولم استطع ان انفعه الا بقصيدة رثاء ! ليته بث الي شكواه في اللقاء الوحيد الذي تم بيننا ، فلعلي كنت اعينه على تذليل صعاب الحياة التي جابهها .

وقد سألت غير واحد من اصدقاء ادهم عن سر انتحاره ، ولِم آثر هذه النهاية الاسيفة وهو هو المرجو المستقبل في دنيا الادب والفكر ؟ فلم يسعفني واحد منهم بجواب الا تلميحهم الى انه قد كان يحس في قرارة نفسه غربة عن المجتمع ، وكانت عبقريته محسوبة عليه لا له . فالمتزمتون كارهون لآرائه المتحررة . والمجتمع الادبي لا يصدق ان ادهم هو صاحب هذه المؤلفات ، بل لقد كان فيهم من يشكك في معرفته اللغة العربية نفسها ، ودع عنك اللغات الاخرى التي كانت له فيها كتابات ! ناهيك بانه متحدر من اصلاب تركية ، تزيد من غربته في اوساط المشتغلين بالضاد . وقد ظلت هذه الغربة النفسية تستبد بتفكيره وتملأ عليه حياته وتتعاظم وطأتها حتى ارتأى الاخلاص منها الا في احضان البحر . وجاءت نهايته الاسيفة فاجعة من فواجع الادب . فكيف يحس اديب بالغربة وهو كادهم علما واطلاعا وتفكيرا ؟ وكيف تأذن الجماعة لمثل هذا الاحساس بالغربة بان ينمو وتشتد وطأته حتى لا يرتجى له علاج الا في قصف العمر قصفا ؟

واديب ثان اختار لحياته نهاية من صنع يديه ، هو الشاعر المفكر الكبير عبد الرحمن شكري ، الذي كان في مطلع هذا القرن من اساتذة التجديد ورواده الاوائل في الادب والفكر ، وكان على راس ثلاثة من كبار المجددين هم شكري والعقاد والمازني . وقد احدث ثلاثتهم حركة ادبية حية ، وكانت لهم اسبقية في تبني مذاهب الادب الغربية وتطبيقها على الادب والشعر المعاصرين كما كانت لهم أولوية في التعريف بالشعراء الغربيين الاماجد العظام في القرن الماضي .

ولكن الالفة التي كانت سائدة بين ثالوث التجديد سرعان ما انفصمت عراها ، لان العقاد والمازني تالبا على شكري واخذا يوسعانه نقدا ويصفانه بانه « صنم الالاعيب » فما لبث شكري ان غامت الدنيا في وجهه ، فانسحب من الحياة مستقيلا من وظيفة التدريس التي

كان يزاولها ، قانعا بمعاش تقاعد هزيل ، واعتكف في عزلة كاملة عن الدنيا ، اولا في بور سعيد ، ثم في الاسكندرية ، ودفن ماضيه ، وانكر ادبه ، وصار يغسل يديه من كل مشغلة ادبية ويوصد بابه في وجه كل قاصد باستثناء بعض الصفوة الاثيرة من خلص اصدقائه الاوفياء القدامى كنقولا يوسف . ولم يعاوده الحنين الى قلمه الا بعد نحو ثلاثين سنة حين شرع ينشر في « المقتطف » سلسلة من المقالات عنوانها « نظرات في النفس والحياة» مكتفيا بامضاء « ع.ش » . وقد ظهر من هذه الحلقات اكثر من ثلاثين مقالة بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥١ ، فيها مقارنات ومقابلات بين التفكير العربي والتفكير الغربي .

واتى النسيان على عبد الرحمن شكري تماما ، ساحبا عليه كل ذيوله . فالزميلان القديمان العقاد والمازني لا يذكرانه في اي مناسبة ، ولهما من صلاتهما بالصحف ما يحول دون ورود اي خبر فيها عن شكري وكتبه ودواوينه نفدت ، ولم يحفل احد باعادة طبعها او بجمع ما لم يكن قد طبع منها . وانزواؤه في مدينة ساحلية قد فصم ما كان بينه وبين الهيئات الادبية فضلا عن انه كان يرجو اصدقاءه الباقين ويلح عليهم في الرجاء في الا يذكروا اسمه بخير او بشر ، والا يتحدثوا عنه في اي مناسبة لايثاره الانقراض والاندثار !

وعلت سنه حتى تجاوزت السبعين . وتحالفت عليه امراض الشيخوخة ، وكف عن الحركة بسبب الفالج وظل حبيس داره في الاسكندرية . الى ان تسامع بعض الصحفيين اخبار شكري ، فأحدثوا جلبة في الصحف اهتم لها اولو الامر فقرروا علاجه في المستشفيات الرسمية . وقبل انجاز الاوراق الدواوينية ، كان الموت اسبق الى احترام حياة عبد الرحمن شكري ، فتكاثف على حياته صمت كئيب هو في حد ذاته احتجاج صامت على ما لقيه في عمره الضائع من جحود وكنود .

ولولا ان قيض الله لعبد الرحمن شكري تلميذا وفيا هو صديقه نقولا يوسف ، وسريا اريحيا هو عبد العزيز مخيون ، اشرف اولهما على طبع ديوانه وثانيهما على الانفاق عليه ، لما تجدد القول في عبد الرحمن شكري، الذي مات فعلا وحقا من اربعين عاما ، بيده لا بيد عمرو !

واديب ثالث اختار لنفسه نهاية أسيفة ، هو الدكتور احمد زكي ابو شادي . فهو قد كان من اسرة مرفهة الحال ، وكان بيت ابيه مقصد الزعماء والكبراء ، وكان يشغل وظائف علمية مرموقة اخرها منصب وكيل كلية الطب بالجامعة ، وكان من كبار الباثولوجيين ، وكان بشعره وكتاباته المنوعة يحتل منزلة عالية في الحياة الادبية ، وكان استاذا لمدرسة شعرية جديدة ، وكان قد تجاوز الخمسين من عمره ، وهي سن لا تغري بتبديل منهاج الحياة ولا بالانتقال من دار اقامة الى دار غربة .

ومع ذلك فقد قرر ابو شادي حال انتهاء الحرب العالمية الثانية ان يهاجر الى الولايات المتحدة ليبدأ الحياة هناك من اول السلم ، ويكافح في اوساط ليس يسيرا على الشباب الغض نفسه ان يكافح فيها ويزاحم بالمناكب . وذهب بأبناء قطعوا نصف مرحلة التعليم ، وبات عليه ان يطوح بنفسه هو وابنه وابنتيه في لجج الحياةالطامية في العالم الجديد .

وقد سألت ابا شادي غير مرة : لم آثرت الهجرة وتركت الاستقرار الى الاضطراب ، وتخليت عن المنصب المرموق « وهو قد كان في وقت ما استاذا للامير ولي العهد » لكي تزاحم من هم بمقام ابنائك من السائرين في اول الدرب ؟ وكان ابو شادي يرد علينا بقصائده التي تتغنى بالحرية وبالمنبر العالي وبالدمقراطية . وكان في احيان أخرى يلمح الى النكايات والاساليب غير الاخلاقية التي عومل بها من اناس علمهم الرماية وعلمهم قول القوافي ، فلما اشتدت سواعدهم رموه ، ولما قالوا قافية هجوه . حتى قال في البيئة التي اضطر الى هجرها :

وطاردتني الى منفاي جانية وعددت صفو آثاري كآثامي

وان كانت البيئة الجديدة التي انتقل اليها قد استقبلته بكلمة نشرها ايليا ابو ماضي في « السمير » عنوانها « ليس منا » !!

وقد ظل ابو شادي في منفاه الاختياري يكافح في سبيل الرزق : يترجم اعلانات ويسجل احاديث على أقراص (اسطوانات) ويعد برامج للاذاعة ، ويحاضر في الجامعات والمعاهد ، ويراجع كتبا لغيره ، ويعمل في وفود الصومال وارترية وغيرهما في الامم المتحدة ، ويحرر في الصحف وما الى هذا من الاعمال . وكان ذلك يقتضيه التحامل على صحته واجهاد بدنه ، لانه كان مضطرا الى القراءة والكتابة بغير توقف ساعات تصل الى ثماني عشرة كل يوم ، متجاوزا عن عطلته الاسبوعية ، ولم تلبث صحته ان تهاوت وتهالكت ، ولم يصمد لاول لطمة اصابت قلبه فمات في حديقة داره .

هذه نهايات اسيفة لثلاثة من كبار المفكرين ، وان تكن غير فريدة في حد ذاتها لان همنجواي مات منتحرا والشاعر صالح شرنوبي مات تحت عجلات قطار والشاعر عزيز فهمي انقلبت به سيارة في « مسبح الحيتان » فمات كما تكهن في قصيدته حيث قال :

أم ان في مسبح الحيتان منقلبي يوم الرحيل اذا ناداني القدر !

ولكن وجه الاسف في هذه النهايات ان اصحابها كانوا اشقياء بفكرهم ، فآثر أولهم الانتحار فرارا من غربة الحياة ، وآثر الثاني العزلة القاتلة تخلصا من الجحود والكنود ، واختار الثالث المنفى بعدما استحال عليه ان يعيش كانسان . وقد مات ثلاثتهم قبل ان يستكملوا رسالة الادب التي كانوا خليقين بادائها .

وواأسفاه .

طرابلس الغرب — ليبيا **وديع فلسطين**

الحب ...

الى كل ممتهن لقدسية الحب عابث بحرمة الحسن .. يتوهم محاريب الحب مخادع يشبع بها نهم الحس أو سوقا تباع بها سلع الحسن ...

★

قلبك قد غاضت ينابيعه   وحيل بين الورد والوارد
والحب في روحك أطلاله   توحي بأن الخالد للخالد
وبين عينيك ظلال بها   كم قال (١) من مضنى ومن واجد
وفي الشفاه الخرس كم قصة   من طارف للحب او تالد
وفي ذراعيك كلال وقد   يثأر للصيد من الصائد
كم بينها بالامس من طفلة   عصرت من ريقها البارد ..
وغرة بالحب أغويتها ...   وأخريات كدن للكائد

يا تاجرا قد كسدت سوقه   فما بها من راغب واحد
كم قد شريت الحب في عملة   زيفتها من قلبك الجامد
والنار كم أوريت مشبوبة   توقدها من روحك الخامد
وكم عذارى رعتها غيلة   بنزوة من حسك الفاسد
وكم قلوب دست حباتها   بركلة من طبعك الجاهد
يا صنما للمكر .. يا ثعلبا ..   سخرت بالمعبود والعابد
الحب نبع مُلْهَمٌ مُلْهِمٌ   يا طهر ذاك الورد والوارد
الحب محراب وباب عصت   الا على المنقطع الزاهد
نور ونار .. جنة في لظى   قد جمعا في عالم واحد
الحب سحر قدست روحه   وسره استعصى على الناشد
أهو من الحسن .. ام الحسن من   أجزائه .. والكل من واحد
ما الحب يا رباه .. ؟ يا بارئي   أنفحة من روحك الخالد
سبحانك اللهم .. كيف الهوى   فجرته في الحي والجامد
كيف جبلت الكون من طينة   والخلق من تياره الصاعد

يا رب .. أنت الكون انت الورى   والحب .. أنت الكل في واحد

---

(١) بمعنى استراح .

جامعة بغداد   عاتكة الخزرجي

لقد فات الاوان

بقلم محمد شاكر احمد

قصة

– انا خائن .. اقتلوني .. أريحوني . ان استطعتم ...

بهذه الكلمات صرخ « عبده البواني » . وكان يبدو عليه التهدم رغم توسط عمره . رجل نحيل معروق الجسم ، طويل القامة وله عينان غائرتان احتلتا موقعين جانبيين من راسه المستطيل . جعل يغدو ويروح في ساحة القرية ببنطلونه الرمادي وقميصه الابيض غير اللافت للنظر . لم يكن هناك احد مقصود بكلماته الصارخة .. الا انه امسك بيده قصاصة صغيرة وجعل يطويها ويضغطها بين سبابته وابهامه كأنما ينفس بذلك عن غيظه . وعاد يفردها من جديد ويتطلع الى كلماتها القليلة بيأس ممزوج بالسخرية والقلق ... « حكمت عليك الثورة بالاعدام جزاء خيانتك للوطن » .

خائن .. خائن !

الحت عليه هذه الكلمة الثقيلة .. اناخت على صدره كجبل . وفي الليل كانت احلامه دوامات رهيبة وصرخات عالية توقظه في النهاية .. خائن . خائن . خائن . فيفزع الى صدر عشيقته « ساراي » ويغرق يديه في شعرها الذهبي . ولكنها دائما في سبات عميق . دائما محايدة لا تستيقظ على صراخه المرتفع . حتى الحب لا يخلصه من مخالب هذه الكلمة ولا ينجيه من نهشها .

وعاد الى قصاصة الورق فكورها من جديد ثم قذف بها بعيدا . وبصق . كأنما اراد ان يلقي بكل همومه ومتاعبه مرة واحدة . وشرع يخطو على مهل ، ككلب صيد مدرب ، وهو يتشمم ويسترق السمع هنا وهناك . وتزاحمت الذكريات والافكار في راسه الذي كان يصلى نيران شمس الظهيرة .

ما الذي دفعه الى ذلك المصير ؟

.. الجوع .. الكسل .. لا بل لعلها الاقدار . وعاد بذاكرته الى الايام العصيبة التي تلت حرب حزيران . ايام منع التجول في قرية « بيتا » . جاع الناس ، وجاع هو . بعضهم اكل اوراق الشجر ، وبعضهم لم يأكل شيئا على الاطلاق . اما هو فلم يقاس طويلا .

– مرحبا يا حبيبي .. قف .. اوه لا تخف !

خاطبه احد افراد دورية معادية ، بعد الاحتلال بثلاثة ايام . توقف وانصت للجندي . جائع طبعا ساله الجندي ببشاشة . تفضل يا حبيبي لن تجوع بعد اليوم .. ولقد تردد في قبول الطعام وان كان لم يرفع بصره عنه . الجوع اللعين . لا ليس الجوع والا فلماذا عاد الى نفس الطريق في اليوم التالي لماذا لم يأكل اوراق الشجر .. لم يمت احد جوعا في القرية .

– لقد اصبحنا اصدقاء .. ردد الجندي بعينه وهو يلمحه في اليوم اللاحق . واضاف : « بيتا » جميلة جدا يا حبيبي . اجمل من باريس نفسها . كم عدد سكانها ؟

– خمسة الاف .. اجاب « عبده البواني » وكان يشعر بالاثم لنقله هذه المعلومات شعور داخلي كان يحذره بعدم التحدث مع العدو المحتل . غير انه اقنع نفسه بسخافة ذلك الشعور ..

وحمله الجنود معهم الى مقر قيادتهم . طعام فاخر وجو بديع حقا واسئلة متعددة عن القرية وسكانها واعمالهم وهل ثمة جنود سابقون ؟ ومتعلمون ؟ كم وكم واين وكيف واجاب عبده . فقد كل احساس بالتمييز بين المهم وغير المهم .. ما يفيد العدو وما لا يفيده . وكيف لا ينسى العالم بأسره والى جانبه ، الى جانبه هو جلست « ساراي » بشعرها الاشقر المنسدل وبشرتها البيضاء والمايوه القصير الذي يبرز فتنة الساقين وجزءا كبيرا من الفخذين . وغلت عروقه بدماء متفجرة أطلقها من عقالها الطعام الدسم الذي تناوله .

– صديقنا انت .. همست ساراي وهي تميل عليه بدلال .. ثم اقتربت اكثر حتى لقد ترددت انفاسها الحارة في وجهه وهي تقول بصوت خفيض :

– بل صديقي انا .. فقط !

وعاد « عبده البواني » الى القرية شخصا اخر . الشبعان الوحيد في قرية جائعة خالجه احساس بالندم ، وصمم على الابتعاد عن الاعداء . وردد في قلبه الف مرة انه لن يغدو خائنا . ولكن ما هي الخيانة ؟ سأل نفسه صبيحة اليوم التالي . واسترجع حديثا سمعه من « حماد سالم » احد الجامعيين في القرية ابدى فيه تقديسه للتراب .. اجل للتراب . ولم يتورع ذلك الاحمق عن تقبيل التراب .. ضج « عبده البواني » بالضحك ولكنه اصطدم بنظرات التوبيخ الرصينة من الحاضرين . هذه هي الوطنية اذن . اما هو فسيسافر قريبا الى الولايات المتحدة حيث يقيم والده واخوته . ولن يعود ..

توالت الذكريات عليه وهو يسير ويسير دونما هدف معين . وفي ظهره تسمرت نظرات تنضح بالاحتقار والحقد .. خيل اليه انه يحس لسع هذه النظرات .. وخزها كالابر . غير انه لم يعبأ بها . جبناء ! صرخ

في اعماقه . ليجرؤوا على مواجهته بهذه النظرات بدلا من غرزها في ظهره كالخناجر . ووضع يديه خلفه كانه يتقي خطرا حقيقيا . مرة واحدة فقط تجرأ « جودة الصادق » على شتمه .

ماذا قال له .. آه انه يتذكر .. لقد تحداه صائحا جاسوس .. خائن .

ثم .. بصق في وجهه !!

لم يكن بينهوبين «جودة الصادق» اي عداوة . فلماذا هذا الاعتداء المنكر . وتلك النظرة المتقززة التي رماه بها كم اثارته. تشبه النظرة الى ثعبان سام ويمتزج فيها الخوف بالاحتقار والتقزز . ليلتها لم ينم .. وعلى فراشه بمقر القيادة اليهودية اخذ يتقلب منذ اكتشف اهل القرية تواطئه مع الاعداء ، الح على اصدقائه ان يقضي ليله عندهم وتجهم قائد الموقع ، وساءه ان يفتضح امر «عبده البواني» . ولكنه رضخ اخيرا لهذا الطلب .

– وستشارك « ساراي » الفراش .. همس له .

– لعلك تزداد نشاطا . هذه نعمة لا ينالها كل انسان ، أؤكد لك .

– اننا معجبون بذكائك ، وخدماتك اضحت مهمة لنا .

– سنجعلك ترتدي الزي العسكري الاسرائيلي ..

هكذا مضوا يتحدثون . وبدا له ان ارتداءه للزي العسكري خطر للغاية .. ولهذا سارع الى الرد ضاحكا :

– سيظنني اللفتانت « باروخ » احد المخربين ...

وضجوا بالضحك . لم يتصوره احد قط وطنيا . امر « جودة الصادق » يعذبه . والاهانة .. كلا ! يجب ان يؤدبه . ولساراي همس بأمر مخرب خطير . اصغت ساراي باهتمام بالغ .. دائما هي تصغي الى معلوماته ، حتى في غمرة الحب تسيطر الفاجرة على نفسها . انها لا تستسلم كليا له .. كأنما تضن على خائن مثله بالتسليم الكامل . ومضى يصف لها كيف رأى « جودة الصادق » وسط ترسانة من الاسلحة . تسألين ما هي هذه الاسلحة .. كثيرة جدا يا حبيبتي . رشاشات . بنادق . ذخيرة ..

– انتظر لحظة . لحظة واحدة ..

هرعت شبهعارية ودون مبالاة الى « باروخ » . نظر اليها وهي تغادر الغرفة متعجبا من تصرفاتها . كم هي شاذة ! هكذا وضعها في دخيلة نفسه . لكنه اطمأن الى ان مصير جودة الصادق قد تقرر الى الابد .

في اليوم التالي اختفى « جودة الصادق » ولم يظهر له اثر في القرية بعدها . اشيع انه في سجن صرفند واشاع البعض انه مات تحت التعذيب . لكن احدا لم ينس تحديه لعبده البواني . وتحاشى الجميع التعرض المباشر للبواني . وان كانوا يرمقونه شزرا حين يدير ظهره لهم . ويتهامسون ويغمزون عندما يقبل حتى اذا اقترب غمره معهم صمت مصمم حاقد كصمت القبور .

شهور عديدة مرت . فكر « عبده البواني » وهو ما يزال يسير . شهور عديدة وخدمات كثيرة انتزع معظمها اعجاب « باروخ » وحب « ساراي » . حين كان يقبل عليها صفر اليدين كانت تتجهم له وتأبى الاقتراب منه . جسدها اضحى باهظ التكاليف .. غير انه كان يدفع الثمن .. وشايات معظمها كاذب ، وبعضها صادق ، ومعلومات وتفاصيل .. كان يقدم ذلك دون كلل ، وفي المقابل غدا نضوا هزيلا غائر العينين .. وهجره الجميع ككلب اجرب ، حتى اخته المتزوجة تبرات منه على رؤوس الاشهاد .

نال منه التعب ولمح شجرة باسقة فاتجه صوبها .. ومسح بكمه فيضا من العرق تصبب عن جبهته . في المدة الاخيرة كثرت تقاريره وازدادت « ساراي » التصاقا به .. كان يحتضنها كقطة أليفة ويغمر يديه في شعرها الذهبي . في سبيل شفتيها الممتلئتين داس باحتقار على الوطن والاصدقاء والتراب الذي يقدسه « حماد سالم » وبين احضان « ساراي » حاول ان ينسى كل متاعبه ، كل الاهمال والاحتقار الذي يحيط به ... لكنها كانت محايدة ولا تكترث لمتاعبه وهمومه . اكثر من مرة شعر بالغربة وهو يضمها بين ذراعيه كقطعة من الجليد .. كان يضغطها بعنف ويحاول ان يتعلق بها كقشة .. بيد انه يصحو على واقعه المرير ليجد انه يقبض على جسم كالزئبق يتسرب من بين اصابعه رغم الجهد الذي يبذله للاحتفاظ به .. ثمة شيء مفتقد في « ساراي » الاخلاص ؟ الحب ؟ الاحترام ؟ انه لا يدري بالضبط !

بلغ الشجرة فتهاوى جالسا عند اصلها . نفس الشجرة التي ارتبطت بحادث جلب له المزيد من رضاه « ساراي » . واخذت ذاكرته التي ارهقها توالي الصور تستعيد التفاصيل المهوشة لما وقع ..

كان الوقت ليلا .. وسار في طريقه الى قيادة الموقع . خطواته حذرة بطيئة كشأنه دائما بعد ان افتضح امره .. وعندما بلغ الشجرة طرق سمعهالمرهف اصوات تتحاور . واخذت اذنه تلتقط محادثة بين خمسة رجال .. كانوا يتحدثون عن عملية فدائية ضد قيادة الموقع . المجانين ! كل تفاصيل العملية سمعها « عبده البواني » وقعقعة السلاح ، لقد طرب كثيرا لقعقعة السلاح :

– أؤكد لك يا حبيبتي «ساراي» .. ان لديهم اسلحة تكفي لكتيبة كاملة !

– كم عددهم ؟ هل قلت خمسة . باروخ ! . اين انت ؟ يا « باروخ » .

لم تهرع الى « باروخ » لانه كان عند الباب . وسرعان ما اتصل باروخ بقيادة المنطقة . كتيبة يهودية بأكملها .. لا تنسوا طائرات الهليوكبتر .

اللقاء اليتيم

لماذا التغني بذاك اللقاء — وما نفعه كل هذا الهراء
فموعدنا كان وعدا يتيما — وان نحن كنا له أوفياء
وعشنا نرجع أصداءه — ونشدو بوهم الشذى والرواء
فما البحر والصخر والمنحنى — وموقفنا اذ طوانا المساء
ورحت تهيل على أضلعي — سنا نشوة عز فيها الرجاء
واصغي اليك بقلبي اللهيف — فيغمرني منك اشهى عطاء
ويسكرني فيك ذاك الرحيق — ويهتف بين ضلوعي النداء
سوى شعلة من سراج الطريق — ستذوي وتخبو وتمضي هباء
فنحن غريبان في قفرة — وموعدنا ذاك ... كان الحذاء
وكنا عطاشا فأغرى بنا — سراب تراءى بوهج الضياء
سنحيا على الحلم يا ملهمي — نعب من الذكريات العزاء

دمشق — سلافة العامري

طبعا فالمشاعل الضوئية مهمة للغاية .. اصغى اليه « البواني » وهو لا ينفك يطلب ويطلب . وانتزعوه انتزاعا من بين شفتي « ساراي » . لا ! بل هي التي قذفت به بعيدا . كانت تعرف بالضبط متى تلقيه ومتى تستعيده . عاملته كآلة مفيدة تدربت جيد اعلى استعمال مثيلاتها .

وحملوه معهم ليدلهم على المكان .. قبالة الرجال الخمسة بالضبط وعلى بعد كاف توقفت الاليات . ثم ابتدأت معركة رهيبة ..

كان يرتجف ذعرا وهو يقول لباروخ :

ـ ارجعوني ... ارجعوني الى « ساراي » !

ـ ايها الاحمق .. ولكن اترى « ساراي » .. انها معنا لقتال المخربين .

ـ اهي تطلق النار ... ؟ سأله وشعور بالضجة والصفار يثقل على قلبه .

ـ طبعا يا عزيزي . انها من سلاح الدبابات ...

والمعركة مستمرة . الليل غدا نهارا متألقا .. لم يستسلم الفدائيون . قتل منهم اربعة اما الخامس فقد اختفى بطريقة غامضة . لا بد انه يعرف مسالك القرية . وارتجف فؤادي هلعا حين ادرك ان له في القرية عدوا خفيا يجهله ويتربص به الدوائر . الفدائي الخامس من القرية كذلك وقر في نفسه .

النوم طاغية يقهر اقوى الارادات . وبدأ النعاس يغالب « عبده البواني » وهو يتذكر كيف وجد القصاصة مثبتة بدبوس على عامود خشبي يتوسط ساحة القرية . ولقد حمل القصاصة حانقا و ...

استغرق في النوم .

ـ انهض . انهض ايها الكلب !

صحا من نومه فزعا على رفسة في بطنه وضوء باهر يغشي عينيه وظلام دامس يلف القرية الوادعة . ومحدثه عملاق يتأبط رشاشا ويغطي وجهه بلثام كثيف . اما الصوت فهو يعرفه جيدا . ولكن ما الفائدة .. لقد فات الاوان !

ـ حكمت عليك الثورة بالاعدام جزاء خيانتك للوطن !

نفس كلمات القصاصة ..

النهاية ! فكر « البواني » لا منقذ له . وقيادة الموقع بعيدة جدا .. هل من سبيل الى النجاة ..

ـ لست خائنا .. لا لست خائنا !

ـ لقد نقلت معلومات الى العدو . كل القرية تعرف بأمرك .. خائن !

من قلبه آمن بأنه خائن فعلا . لكن الموت ؟! وطافت بخاطره اشباح ماضيه فتضايق بغتة ، وثقلت عليه وطأة خطاياه .

ـ انا خائن . ولكن اليس ثمة فرصة اخرى ؟

وقال العملاق وهو يضغط على الزناد وكأنما يحدث نفسه :

ـ لقد فات الاوان ... لقد فات الاوان ...

عمان — محمد شاكر احمد



ظافر القاسمي

انا والمطبعة

بقلم ظافر القاسمي

استاذ اللغة العربية في الجامعة اللبنانية

* * *

كنت في الحادية عشرة من عمري يوم عرفت المطبعة للمرة الاولى في حياتي . كان ذلك في عام ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٣ م. حينما قام اهلي بطبع كتاب من كتب ابي التي خلفها مخطوطة . وقد كانت مشاركتي في اخراج الكتاب محدودة باديء الامر ، لا تعدو اعادة الملزمة التي صححت الى المطبعة . ثم ارتقيت ذات يوم لم يكن فيه في بيتنا الا واحد من اخوتي الذين سبقوني الى الدار الاخرة ، رحمهم الله. فاضطر لان يعطيني الاصل ، ولان يصحح هذه الملزمة التي بين يديه ، وارشدني الى الدقة في تتبع النص ، والاهتمام بالانتباه الكلي لما يقرأ . واذكر انني حينما حملت اول ملزمة مصححة الى المطبعة عجبت من هذا المكان الذي تخرش فيه رائحة الحبر الآناف ، ومن هذا الورق الممزق الملقى في الارض ، ومن هذا الحديد العجيب التركيب ، الذي يدار بعضه باليد ، وبعضه بالرجل ، وجزء كبير منه يديره الكهرباء ، حيث يلقى بطبق الورق من احد جانبيه فاذا هو يخرج مكتوبا من الجانب الاخر . وكان صاحب المطبعة نصف امي ، فهو معلم وعامل في آن معا . ولما لقيته للمرة الاولى اخذ مني الملزمة ولم يأبه لي ، فطفقت اصوب بصري في انحاء هذا المكان العجيب الذي لم يكن لي بمثله عهد . واخذت زوراتي تتكرر الى المطبعة ، كلما صححت ملزمة او اعيد تصحيحها ، فنشأت بيني وبين هذا المكان الفة ما زلت احن اليها حتى اليوم ، كما ان رائحة الحبر ما زالت عالقة في خياشيمي ، اما تقديري لهذه الايدي الملوثة بالسواد ، والذي عرفت في زورة من زوراتي انه حبر المطبعة ، فانه قد نبت فجأة حينما خرج الكتاب من المطبعة ، مجلدا ، بغلاف حسن ، وعليه أسم ابي الذي أزهو به بين الاقران . لولا هذه الايدي المتسخة بالسواد لما خرج كتاب ابي ، فهم اذن أصحاب الفضل في اخراجه ، فقدرتهم وقدرت ايديهم ، ثم اصبح لتقدير العمل في نفسي معان أخر ، ليس هنا مجال بحثها .

بقيت أحن الى المطبعة طوال دراستي الثانوية ، وكنت كلماارتقيت سنة، كلما ازددتعلما ببعضتفاصيلها: بأحرفها وانواعها واشكالها ومقاييسها ومسابكها . واصبحت افرق بين الحرف الحلبي ، وسركيس ، والالماني (برتهولد) ، والمصري ، وكان اكثر مايروقني اشراق حرف المطبعة الاميرية في القاهرة ، التي اصبحت فيما بعد مطبعة دار الكتب المصرية ، وكنت حريصا – على الاعم الاغلب – على اقتناء مطبوعاتها لجمال حرفها واشراقه .

لم تتح لي العودة الى المطبعة خلال دراستي الثانوية، ولم انعم بجو صناديقها الخشبية المتعددة البيوت ، ولا برائحة حبرها ، ولا بالنظر الى الايادي التي اتسخت بالحبر ، هذه الايادي التي تقدم الى الناس الوان المعرفة، وفنون العلم . لذلك لم اكد انهي دراستي الثانوية حتى الفت مع صديقين عتيقين ، هما الاستاذان داود التكريتي وعطا الانكليزي ، من اصدقاء الدراسة ، ما سميناه يومئذ « مكتب النشر العربي » تقليدا لمؤسسة كبرى أسهمت اكبر اسهام في خدمة الكتاب العربي ، ونشر الثقافة العربية ، اعني بها « لجنة التاليف والترجمة والنشر » القاهرية نضر الله أيامها وجزى اصحابها كفاء ما قدموا للعرب من خدمات .

كان أول ما عنينا بنشره كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي ، و « حي بن يقظان » لابن طفيل الاندلسي ، وكانا كتابين مقررين في منهاج صف الفلسفة ، فأخرجناهما اخراجا خيل الينا أنه حسن . ثم اعقبناهما بكتاب « البخلاء » للجاحظ ، الذي حشدنا له اكبر جهد علمي ممكن في ذلك الزمان . اما كيف تداركنا نفقات الطبع ، وقيمة الورق والغلاف ، واجرة الكليشهات ، فذلك أمر يبدو غريبا لابنائنا اليوم : لقد ادخرنا من خرجياتنا التي كانت تعطى الينا من اهلينا قيمة الورق ، اما اجرة الطبع ، فقد أعاننا صاحب المطبعة ، الاستاذ العصامي وجيه بيضون ، بتأجيلها الى ما بعد بيع الكتاب . وهذه حسنة اذكرها له بكثير من التقدير والاعجاب .

اما كتابا أستاذنا العلامة فارس الخوري ، رحمه الله ، علم المالية وأصول المحاكمات الحقوقية ، فقد

كانت الجامعة طبعتهما في مطبعتها مجانا ، وادى هو ثمن الورق . وقد صدرا باسم (مكتب النشر العربي) تسامحا منه ، ومكافأة لنا على اشرافنا على تصحيح تجارب الكتابين .

وعلى الرغم من توالي الخسائر ، وعدم تغطية النفقات ، فقد صممت على نشر كتاب أبي « قواعد التجديث » ، كان الفضل الاكبر في نشر هذا الكتاب ، للاستاذ الثقة عز الدين علم الدين ، نضر الله عظامه في قبره . اذ اقترح ذات يوم في حلقة الشيوخ التي كانت تعقد في دارنا قراءة الكتاب وهو مخطوط . وكان من حضور حلقة الشيوخ : عبد الله العلمي ، وجميل الشطي وحامد التقي واحمد الجبان رحمهم الله ، ومحمد بهجة البيطار مد الله في عمره المبارك ، ليزيد الناس نفعا من هديه وعلمه . واخذ عز الدين يقرأ في كل جلسة فصلا ، ويبدأ الجلسة كما ينهيها بضرورة نشر الكتاب . ولم يكن لدي المال الكافي لطبعه ، الى ان اتفق أن توفي زوج **لاخت لي ، كان من ابر الرجال واكرمهم اسمه عثمان** القبرا (١) . **وقدوزعت تركته فنالت اختي منها خمس عشرة ليرة ذهبية عثمانية ، فأغرت عليها** ، وسارعت الى نشر الكتاب ، وحبست شيخي واستاذي البيطار في بيتي شهورا طويلة لتحقيقه وتخريج احاديثه ، فقبل الحبس راضيا مرضيا ، لانه كان يرى انه يؤدي خدمة لشيخه من ناحية ، وخدمة أكبر للشريعة الاسلامية من ناحية أخرى .

وأراني قد أطلت الحديث عن نفسي ، وما أدري كيف ورطني قلمي في هذا الحديث ، وما كنت أريد الا ان أتحدث عمن لقيت في المطبعة ، وعن أثرهم في تكوين ثقافتي ، وعقلي ، وروحي جميعا .

اظن انه لا جناح علي فيما أسلفت من الحديث عن نفسي . واذا كان القارىء قد استثقله فليغفر لي هذه « الانية » التي قلما خلا منها بشر . **ولاعد الى ما كنت قد عقدت النية عليه :**

لقد سكنت المطبعة سنين ، وانا اشرف مع صديقي على طبع هذه الكتب . وكانت كلها في مطبعة ابن زيدون ، لصاحبها العصامي الحر الاستاذ وجيه بيضون . **وكان طبيعيا ان القى في هذه المطبعة غيري ممن** يسعون لنشر كتبهم او مجلاتهم . وكانت ميزة هذه المطبعة أن صاحبها قد أدركته حرفة الادب ، فيمكن الاعتماد عليه في التصحيح الاولي . لذلك كنت ترى فيها طوائف من العلماء الاجلاء .

ان صورة وجه العلامة الجليل ، المجتهد الاكبر ، السيد محسن الامين ، أخلد الصور في نفسي وأبقاها على الدهر . كان ، أعلى الله غرفته في الجنة ، يطبع أحد أجزاء موسوعته الكبرى « اعيان الشيعة » التي تجاوزت أربعين مجلدا عدا . ولن أنسى لحيته البيضاء المسترسلة على صدره ، ولا عمامته المهيبة الجميلة التي كانت تعمر راسه ، ولا لباسه الزاهد النظيف ، ولا بشاشته وطلاقته وعذوبة حديثه ، ولاسيما ساعة عرف انني ولد صديقه جمال الدين القاسمي . لقد كرمني حتى اشعرني بأنني ولده ، ثم شجعني حتى خيل الي غروري انني نده ، وطاف معي في أحاديث ، كنت احسب انني كنت مشارطا فيها ، ثم عرفت بعد قليل أنني لم اكن فيها الا تلميذا . ذلك أسلوب الجلة من العلماء الذين آتاهم الله رجاحة العقل ، وحسن المآتي ، ورقة القلب ، والقدرة على اكتساب النفوس . وقد استعان بي ذات يوم ، فكلفني ان أقرأ ، ولم أكن أدري أنه اراد ان يمتحنني ، فلما راى اعراب قراءتي ونبرة صوتي وقلة لحني ازداد لي تشجيعا . وأثنى علي ثناء ما اظن انني سمعت مثله في حياتي . وحمد الله على ان خلف جمال الدين ولدا مثلي . ولك ان تكره مرة ثانية هذا التحدث عن النفس ، ولكني مضطر اليه لانني اردت ان اصور لك المدى الذي دفعني اليه المجتهد الاكبر في هذا الثناء ، اذ دفعني بشكل لا شعوري الى الاستزادة من المطالعة والدرس ، وان كنت لا اخفي انه قد خلف في نفسي شيئا من الغرور ، أنا وحدي مسؤول عنه ، او ان شئت قلت ان سني كانت مسؤولة عنه فلم أكن يومئذ قد جاوزت الثانية والعشرين .

وتأتي بعد صورة المجتهد الاكبر صورة أخرى لا تقل عنها اشراقا ، ولا في نفسي أثرا ، هي صورة الشيخ حبيب العبيدي (ومن من شبابنا اليوم يعرف حبيب العبيدي ؟) أحد أعلام العراق ، ومفتي موصله ، وأديب من الطراز الاول . كان رحمه الله يطبع كتابه « النواة في حقول الحياة » . وكان يرتاد المطبعة في الصيف ، ويجلس غالبا على الطاولة المتواضعة التي تلي الباب ، ويأخذ في تصحيح ملازم الكتاب ، فاذا نهض رأيت قامة أقرب الى الطول في غير سوء ، ولحية خفيفة وخطها الشيب ، وعمامة حلوة زينت رأسه ، ولغة قرشية معربة صحيحة فصيحة تتدفق على لسانه . حتى كأنه كان يقرأ في كتاب ، أو يغرف من بحر . وما اسرع استشهاده بالآية الكريمة او الحديث الشريف او المثل او البيت من الشعر . كانت لي مجالس مع الحبيب العبيدي اعدها دروسا نافعة أثرت في ثقافتي وتكويني ، وعلمتني كيف يكون رجل الدين ، المفتي ، حرا ، مستقلا ، يحترم عقله ، ولا يغض من عقل غيره . وما زلت اذكر انني شاركته في تصحيح بعض « الحقول » التي كان يطبعها ، ومن بينها حقل عن زينة المساجد ، قال فيه : « زينة المساجد تقوى الله » ، ثم القى من يده القلم والملزمة ، ورفع نظارتيه ، واتجه الي يقول : ما نفع هذه الابنية الضخمة

---

(١) في كتابنا : فصول في اللغة والادب فصل من مكرماته في الصفحة ١٨٨ ، فارجع اليه اذا شئت .

آن الاوان

آن الاوان فهللي يـا داري — واستبشري فالفوز للصبار
وثبت كواسر يعرب نحو الوغى — والغـاب حن لنغمـة التزآر
فترقبي يا قدس منا موكبـا — يرجو الشهادة عن رضى وخيار
ودعي البكاء (خليلنا) وترفقي — في مقلـة ضاقت بالاستعبار
انـا عقدنـا العزم الا نصطفي — غير السلاح لصون كل ذمـار
نحن الصواعق جردت من مزنها — نحن العواصف أنذرت بدمار
عجزت سوافي الريح عن ادراكنا — حين اقتحمنا لجـة الاخطـار
حمم سيقذفنا الزمان عداتنا — أسد أبـاة خصمنا متـواري
يا درة الاوطان مرحى للردى — ان كان موتي في سبيل دياري

عمـان — ابراهيم خليل العجلوني

التي ندعي انها مساجد اذا لم تزينها تقوى الله ؟ وأفاض في الحديث عن التقوى ، مما لا يزال يرن فـي اذنـي ، وسيعمر نفسي ابد الدهر .

وصورة اخرى لا ادري كيف اصفها . انها صورة الشيخ سعيد العرفي ، مفتي دير الزور يومئذ كان الشيخ العرفي يطبع كتابه « سر انحلال الامم الاسلامية » . كان ربعة بين الناس ، مضطرب الهندام ، فاقد الترتيـب ، ليس له أي اهتمام بلباسه ولا بنظافته . وكانت تغلـب عليه ، كمعظم اخواني الديريني الذيـن عرفتهم ، طبيعـة الصحراء ، وصفاؤها ، وطهارتها ، وبراءتها ، وقربها من الفطرة ، الا ان علمه كان مشوبا بشيء من الجفوة والقسوة والشدة التي تلازم ايضا طبيعة الصحراء . ولكن كانت له الى جانب ذلك حسنات ، افدت منها كثيرا ، فهـو دؤوب نشيط ، لا يكل ولا يمل ، وهو كثير التألم لتخلف المسلمين ، وهو كثير التحدث عن هذا الالم . صحيـح انني كنت قد قرأت في هذا الموضوع كثيرا من الدراسات، ولكن حرارة حديث العرفي تركت في نفسي آثارا لا تمحى.

وممن جمعتني بهم المطبعة ، وكان لهم علي فضل ، الاستاذ الصديق كاظم الداغستاني . كـان حديث العودة من باريس ، ممتلئا حماسة واندفاعا في سبيل خدمـة الثقافة العربية ، فأنشأ مع الاساتذة خليل مردم وجميل صليبا وكامل عياد مجلة « الثقافة » التي لم تعش الا سنة واحـدة ، وبشق الانفس . وكانت المجلة تطبع في مطبعة ابن زيدون . لقد نعمت بصداقة الاديـب الاجتماعـي الدكتور الداغستاني بين صناديق الحـروف والاوراق المزقة وما زال حبل الود متصلا حتى اليوم . ولقـد افدت من معرفته العميقة باللغة الفرنسية وآدابهـا ، ومواضع استعمال مفرداتها ، ما اذكره دومـا بعرفـان الجميل . اضف الى ذلك ما كان يتخلل اجتماعاتنا مـن مذاكرات كلها تتعلق بمشاكل العصر ، او بوسائل نهوض الثقافة ، او في موضوع ادبي او علمي . كان كاظـم الداغستاني اكبر مني سنا ، واكثر اطلاعا واوسع علما وأحسن اتقانا للغة الفرنسية . وما خرجت يوما من المطبعة بعد اجتماعي اليه الا وعلى كتفي فائدة من الفوائد ، نفعتني فـي حياتي الفكرية .

ولا يمكن ان انسى لداتي واقراني ، ورفاقي فـي الدراسة بمكتب عنبر ، الذين اختاروا التعليم ، فكانوا اساتذة في التعليم الابتدائي . كانوا يرتادون المطبعة في موسم معلوم ، هو موسم طبع الكتب المدرسية التي كانوا يؤلفونها لصغار التلاميذ . لقد كان لقائي الروحي بهؤلاء الاقران يجدد عهدي بطفولتي ، وبأيام الدراسة الحلـوة التي يفوح عبيرها في النفس ما طالت بالانسان الحياة .

وبعد ، فاذا كنت قد جعلت عنوان هذا المقـال « انا والمطبعة » ، فالفضل في ذلك يعود كرة اخرى الى الاستاذ شفيق جبري ، الذي سن هذه السنة الحسنـة في كتابيه « انا والشعر » و « انا والنثر » ، ففتح امام المعجبين بأدبه وفضله باب « الانية » التي لا تنتهي .

ذلك بعض فضل المطبعة علي ، كتبته من الذاكـرة وحدها ، ولعل ما انسيته خير مما كتبت .

ظافر القاسمي

صرخة الثأر

القيت في مهرجان الشعر التاسع ببغداد

حسن عبدالله القرشي

* * *

هتف النذير فلا تغيبي ... وترصدي لجج الخطوب
وتقحمي الغمرات وحد ... ك رغم يأس المستريب
وتوهجي كالجمر وانـ ... ـطلقي كطوفان غضوب
الخطب خطبك انت لا ... خطب الصديق او الغريب
والجرح جرحك فالنزيـ ... ـف الحر من وطني السليب
لا في ديار (الغرب) او ... في (الشرق) برء للندوب
والثأر ثأرك ضجت الا ... كفان للضيم المعيب
ظمىء الثرى لدم من الا ... بطال هدار سكيب
واهتزت الصحراء رغـ ... ـما عن مدنسها الطروب
وتمردت شم المعا ... قل من شمال او جنوب
توري على القيد المهيـ ... ـن وزلزلي حصن المريب
يـا امتي يا مصنع الا ... مجاد يا فجر الغيوب

(عامان) والداء العضا ... ل يؤج أوردة القلوب
(عامان) والداء العيا ... ء يفح كالصل الرهيب
يسري كسم ، ناقع ... ويغل اوتار الوجيب
(صهيون) فوق (القدس) ير ... قص ؟ فوق (جولان) المهيب
يحتل (سينا) عابثا ... بترابها العبق الخضيب
فوق (القناة) الهر يز ... أر راصداً كل الدروب
(عامان) والسهم المرا ... ش ، يحز في كل الجنوب
(عامان) والعشرون قبـ ... ـل وفي النفوس صدى الشحوب
لا حاضري بهج ولا ... دنياي ذات جنى وطيب
اغدو ، اروح كأنني ... شبح على ظل المغيب
وتصيح آلامي ويصر ... خ في دمي صوت النعيب
أأنا هنا آبن الشمس ايـ ... ـن الشمس من حقلي الجديب
أأنا حفيد النابهيـ ... ـن ؟ أنا المرزأ بالذنوب
اني غبار الامس انـ ... ـي منه كالرهج الخلوب
اني هباء ضائع ... انا للشباب صدى مشيب

ومضيت ارفض حيرتي الـ ... ـصماء أعصف بالهروب
أعلو على وخز الجرا ... ح تشب من حمل وذيب
في كل يوم قصة ... للعار تنكأ من ندوبي

حتى استفقت على النفيـ   ـر يضج في الوطن الحريب
ويمـزق المأساة كالـ   أعصار في الليل الرهيب

حييت يا رمز الفدا   ء وابت بالمجد الخصيب
سيري ولا تعني لخصـ   ـم لا تليني أو تؤوبي
ول (تعصفي) ول (تصعقي)   متفطرسا جهم النيوب
قد جاز من خلل الخلا   ف فبددي خلف القريب
ضحك الصباح اليك مر   حى للصباح المستجيب
وتمزقت حجب الظلا   م وبش منسدل القطوب
وصحوت يأبى الله ان   تهني لمجترم كذوب
لن يترك الفادون وحـ   ـدهمو على الدرب الرغيب
فوراء جحفلهم ليو   ث العرب تهفو للوثوب
لن تنثني حتى ترى   أعداءها صرعى شعوب
يا أمة الاسلام دو   ي صوت (احمدك) الحبيب
ينساب حي على الكفا   ح مجلجلا فاليه ثوبي
لا تحفلي السلم الخنو   ع واججي نار الحروب
فالحرب ان تلقح يفح   للسلم أي شذى عجيب
والحرب مورية الشكا   ئم ان وهى زند الشعوب
ما العدو سوى السلا   ح اذا انتضته يد اللبيب

(بغداد) يا غاب الاسو   د ويا شرارات اللهيب
(بغداد) يا ساح الابا   ء لكل فداء غلوب
يحمي الذمار بروحه   بنجيعه الزاكي الصبيب
ما هنت يوما للدخيـ   ـل ولا استكنت الى الخطوب
علم الشموخ على مدى الـ   ـتاريخ مصباح الاديب
من عهد (هرون الرشيـ   ـد) وعهد (معتصم) المجيب
(بغداد) زهر الخلد تصـ   ـرخ في حمى (القدس) الحريب
يدعون (معتصما) يشل   اليوم طارقة الكروب
ويحطم الاغلال تغـ   ـرز في المعاصم والقلوب
فتقدمي فالنصر مر   تهن لدى العزم الصليب
تلك الطلائع من بنيـ   ـك نفرن كالقدر المصيب
تصلي العدو جحيمها   وتهش لليوم العصيب

يا امة العرب اسلمي   وثبي الى العليا وأوبي
نحن الألى عركوا الشدا   ئد دون يأس أو لغوب
نسجت عزائمنا الملا   حم وانتشت بدم الحروب
(صهيون) لن تحيا وفي الـ   أجمات زمجرة الشعوب
وغدا فلولك سوف تو   فض للجحور وللثقوب
ويعود موطننا الأبي   مطهرا خضل الطيوب

الرياض   حسن عبدالله القرشي



الدكتور احمد الشرباصي

مع الشاعر ابن سناء الملك

بقلم الدكتور احمد الشرباصي

***

عصر الشاعر

ما اكثر النكبات التي أصابت الشرق العربي الاسلامي في تاريخه الطويل • لكأن الايام اتخذت من نفسها نافخ كير يظل يلهب نار الاختبار والابتلاء على كيان هذا الجزء الجليل من ارجاء هذا الكوكب الذي نعيش عليه . ومن النكبات الكبار الجسام في تاريخ العرب والاسلام نكبة الحروب الصليبية التي اصيب بها الشرق العربي الاسلامي في وقت كان فيه ممزقا مفرقا ، فسهل على جبابرة هذه الحروب ان يبتلعوا دويلاته واحدة بعد اخرى ، مستغلين في ذلك اسم الدين ، والدين السمح من هذا الطغيان براء .

ولكن الله هيأ للمجتمع العربي البطل الاسلامي صلاح الدين الايوبي الذي حقق وحدة مصر اولا ، ثم وحدة مصر والشام ثانيا ، ثم وقف في وجه الصليبيين فدحرهم في معركة « حطين » من ارض فلسطين ، ردها الله على العرب والمسلمين ، وبعد ذلك بقليل تسلم صلاح الدين مدينة « القدس » في اليوم السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ، اي في يوم الاسراء والمعراج ، وكان ذلك فالا حسنا وبشرى طيبة .

وظل صلاح الدين رابضا ساهرا يذود عن الحمى ويحرس الحرمات حتى لحق بربه في ليلة الاربعاء من شهر صفر سنة ٥٨٩ هـ عليه رضوان الله تعالى .

وهذا العصر الذي عاش فيه صلاح الدين خلال تلك الاحداث كان يحتاج الى السنة من الشعراء والخطباء ، يحرضون على الجهاد ، ويحثون على البطولة ، وكان صلاح الدين يقدر الادباء ويقرب الشعراء ، وكأنه كان يريدهم مناضلين بالكلمة المنثورة او المنظومة ، ليؤكدوا ما ظهر في هذا العصر من ملامح الاعتزاز بالروح الاسلامية التي عاون على تجليها الحروب الصليبية من جهة ، وجهود بعض السلاطين المتدينين من جهة أخرى ، ولكن هذا الاتجاه لم يمنع وجود افراد من الشعراء في هذا العصر يميلون الى الفحش والمجون ، او يقولون ما نسميه « الادب المكشوف » . ولعل كثيرا منهم كانوا يأتون هذا القول ترويحا وتمليحا ، وان كان بعضهم يأتيه انحرافا واعتسافا .

وكان ابن سناء الملك من شعراء هذا العصر ، ومن الذين ساروا في ركاب صلاح الدين الايوبي ، والعجيب ان ابن سناء الملك يعطينا في شعره صورتين متباعدتين او متناقضتين ، ففي الصورة الاولى نراه المتحدث عن المعالي الهائم بالمفاخر الطموح الى الجلائل ، وفي الصورة الثانية نراه الفاحش القول المكشوف الادب . وسواء أكان هذا التناقض قد نشأ عن تفنن الشاعر في القول يأتي به مرة كريما قويما ، ويأتي به مرة فاحشا ماجنا ، أم كان ناشئا عن منافقة للمجتمع ، فهو يلقى الناس بوجه ، ويخلو الى نفسه بوجه ، أم كان ناشئا عما يسمونه « ازدواج الشخصية » ، فالذي لا شك فيه ان ابن سناء الملك قد اعطى بمجموع شعره صورة لمجتمعه بطرفيه المتناقضين ! .

ابن سناء الملك

هو أحد شعراء العصر العباسي الثاني ، وأول من اجاد صناعة « الموشحات » من اهل المشرق الذين سبقهم اهل المغرب الى هذا الفن الشعري ، وهو صاحب كتاب « دار الطراز » في الموشحات ، وهو كتاب فريد وحيد في فنه وبابه ، ضمنه صاحبه كثيرا من الموشحات التي ظهرت في المغرب والمشرق .

وهو الشاعر المحظوظ في دنياه ، حتى كانت حياته ـ كما يقول ابن خلكان ـ مملوءة بالهناء ، يتفيأ فيها ظلال النعيم والرخاء ، وهو صاحب المكانة الملحوظة في الشعر ، فيقول عنه ياقوت في معجم الادباء انه « أحد أدباء العصر ، وشعرائه المجيدين ، ذاع صيته ، وسار ذكره» ، ويقول عنه عماد الدين الاصفهاني في كتابه : «خريدة القصر وجريدة العصر » هذه العبارة : « وجدته في الذكاء آية ، احرز في صناعة النثر والنظم غاية » .

وهو : القاضي السعيد عز الدين ابو القاسم هبة الله ، ابن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر ، ابن المعتمد سناء الملك ابو عبد الله محمد ، بن هبة الله بن محمد السعدي المصري ، المعروف بابن سناء الملك .

وهو من اسرة غنية ذات مجد وفضل ، وكان أبوه يشغل وظيفة سامية في مجتمعه ، وله ميل الى الادب وعناية بالمعرفة ، وكان لهذا الوالد صداقة مع الكاتب الاشهر في ذلك العصر ، وهو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، وكان هذه الصداقة كانت من اقوى الاسباب التي جعلت الكاتب العلم يعنى بتوجيه ابن سناء الملك الكاتب الشاعر ، وتخريجه في الشعر والكتابة ، والتنويه به بين الناس ، حتى اصبحت لشاعرنا مكانة ، ولشعره بين الناس منزلة .

وقد ولد ابن سناء الملك في القاهرة ـ او في ضاحية من ضواحيها ـ وتعددت الروايات في تحديد السنة التي ولد فيها ، فقيل انها سنة ٥٤٥ هـ • وقيل سنة ٥٥٠ وقيل سنة ٥٥١ هـ ، والقول الاخير ارجح .

وحفظ القرآن الكريم على يد القارىء المقرىء « الشريف الخطيب» المتوفي سنة ٥٦٣ هـ ، وتعلم اللغة والنحو على يد عبد الله بن بري المتوفي سنة ٥٨٢ هـ ، وفي سنة ٥٧٠ هـ سافر ابن سناء الملك الى الاسكندرية فتلقى الحديث على يد المحدث الحافظ أبي طاهر أحمد السلفي ، وتخرج في مجال الشعر والنثر ـ كما عرفنا ـ على يد القاضي الفاضل الذي جعل لتلميذه مكانة مرموقة ، وكان التلميذ في خدمة استاذه بدمشق سنة ٥١٧ هـ ، ولما عاد ابن سناء الملك الى القاهرة كانت بينه وبين القاضي الفاضل مراسلات لها قيمتها الادبية

الكبيرة بالنسبة الى عصرها ، ومدح الشاعر أستاذه بقصائد كثيرة .

وتعلم ابن سناء الملك اللغة الفارسية .

تقلبه في حياته

في سنة ٥٧١ هـ انتقل القاضي الفاضل من القاهرة الى دمشق ليكون في خدمة البطل المجاهد صلاح الدين الايوبي ، ومن دمشق راسل القاضي الفاضل تلميذه ابن سناء الملك المقيم بالقاهرة ، وبعد حين أرسل القاضي الى الشاعر يستقدمه الى دمشق ، ليكون كاتم السر في ديوان الانشاء الذي يتولاه القاضي الفاضل ، وقضى ابن سناء الملك مدة في الشام ، ثم غلبه حنينه الى مصر ، فعاد اليها سنة ٥٧٢هـ في ركاب صلاح الدين الذي عاد مع رجاله الى مصر .

ثم عين القاضي شاعرنا وكيلا عنه في مصر ، يدير له شؤونه بعد أن عاد القاضي الفاضل الى الشام مرة اخرى ، وظل ابن سناء في هذه الوظيفة حتى مات القاضي سنة ٥٩٦ هـ .

وفي سنة ٦٠٦ هـ أسند الملك الكامل ابن الملك العادل الى ابن سناء الملك وظيفة الاشراف على ديوان الجيش ، ولكن هذه الوظيفة لم تعجب ابن سناء ، ولم تناسب طبيعته ، فاعتذر عنها بتلطف ، وصنع في ذلك قصيدة قال فيها للملك العادل :

قد عجز الملوك عن خدمة ثباته في مثلها طيش
للجيش ديوان ، ومالي به أنس ، ولا عندي له عيش
وصرت مهزوما ، فلا تعجبوا من واحد يهزمه الجيش

ولست ادري ـ ولعلك لست تدري معي ايضا ـ لماذا يدعو ابن سناء الملك الناس في البيت الثالث الى ترك العجب من واحد يهزمه الجيش ، ومن ذا الذي يعجب اذا انهزم واحد امام جيش وهذا أمر طبيعي ؟ . انها الصنعة البيانية هي التي دفعت الشاعر الى الاتيان بهذا التعبير المخادع .

واما عن شخصية ابن سناء الملك واخلاقه فهو كما اشرت لا يمضي على خطة سواء ، بل يكاد يكون من أصحاب « الشخصية المزدوجة » ، فهو في ظاهره وسلوكه رجل يحرص على التقوى والاتزان والاعتدال ، ولكنه في بعض احواله يخرج طائعا او مكرها عن هذه الاستقامة قليلا او كثيرا ، وهو يستجيب لموحيات عصره المليء بالاحداث والملاحم ، فيتحدث عن الجهاد والنضال والاقدام ، وعن الشجاعة والجرأة والثبات ، ولكنه في بعض أحواله يتنكر لهذا الذي يقول ، او لا يفي له على ما يجب ان يكون الوفاء .

وتبدو من ابن سناء الملك ـ مثلا ـ الثقة بالنفس والاعتزاز بالذات ، ويفسح المدى لنفسه في ذلك ، حتى يقول وهو يمدح السلطان صلاح الدين من قصيدة :

لك المدح مني يتنشي السامعون به كأن مديحي في معاليك أكؤس
كلانا بديع الصنع : مدحي مطبق وجاشك في قهر الملوك مجنس (١)

ثم هو يصل الى حد الغرور الذي لا يصدقه واقع ، فذلك حيث يسرف مثلا فيقول :

وفرط احتقاري للانام لانني أرى كل عار من حلى سؤددي سدى
وانك عبدي يا زمان وانني على الكره مني أن أرى لك سيدا
ولو علمت زهر النجوم مكانتي لخرت جميعا نحو وجهي سجدا
أرى الخلق دوني اذ أراني فوقهم ذكاء وعلما واعتلاء وسؤددا

وهو هنا يستخدم خياله اكثر من استمداده من واقعه ، وتشغله الصنعة البديعية كالجناس الذي حاوله في كلمتي « سؤدد » و « سدى » والمقابلة او المطابقة بين كلمتي « عبدي » و « سيدا » وبين كلمتي « دونى » و « فوقهم » ... الخ

ولابن سناء الملك مبالغات في المدح تدل على أنه كان يتزلف الى ممدوحيه ، ولا يتورع في امداحه عن الاتيان بأوصاف للممدوحين لا يقرها الدين ، وهو ايضا ينافق احيانا في مديحه ، ويجرؤ فيعترف بهذا ، حيث يقول مثلا :

وأنفقت عمري في مدائح معشر كموتي ، ولو أنصفت كن مراثي

ويقول أيضا :

كآبة الكذب في مديحي ورونق الصدق في هجائي

ويقول في شخص خاصمه ثم اضطر الى مصالحته :

أقبل كفا ليتني لو قطعتها والثم ثغرا ليتني لو فضضته

ومما يؤخذ على ابن سناء الملك من الناحية الاخلاقية انه قد جعل من نفسه تلميذا وتابعا للقاضي الفاضل طيلة حياته ، ونفعه القاضي بالكثير ، فلما مات القاضي انتقل الشاعر الى مدح الوزير «ابن شكر»، مع ان هذا الوزير كان عدوا لدودا للقاضي الفاضل .

وفي سنة ٥٩٢ توفى والد ابن سناء الملك ، فتعرض الشاعر عقب ذلك لمتاعب كثيرة ، واصابه الحزن والفقر والاحتياج ، ووافته منيته يوم الاربعاء الرابع من شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١٢ م) بالقاهرة، عليه رحمة الله تعالى .

مكانته الادبية

تعادلت قوة الشعر وقوة النثر عند ابن سناء الملك ، ولشعره مكانته ، ولنثره منزلته ، وان كان شعره قد حظي بالتفات وعناية لم يحظ بها نثره ، وهذه هي العادة مع اكثر الشاعرين الناثرين .

وحين نرجع الى كتاب « خزانة الادب وغاية الارب » لتقي الدين ابي بكر بن حجة الحموي نجده قد جعل ابن سناء الملك احد مجموعة الشعراء الذي يستشهد بشعرهم ويثني عليهم ، ويكرر العودة اليهم ، فهو قد ذكر ابن سناء الملك في طائفة من المواضع مثنيا مقدرا ، ومن قبيل ذلك انه خلال حديثه عن الاستعارة قال (٢) :

« وما احلى قول القاضي السعيد ابن سناء الملك هنا :

ولبعدهم طالت ذوائب ليلهم فبها تغطى ضوء وجه نهارهم

وأحلى منه قوله :

سرى طيفه ، لا بل سرى لي سرابه وقد طار من وكر الظلام غرابه
أتت مع نفس الليل صفحة خده فقلت : حبيب قد أتا بي كتابه

وقال من غيرها :

بشوك القنا يحمون شهد رضابها

وما أحلى تكميله بقوله :

ولا بد دون الشهد من ابر النحل

ومثله قوله :

ألقى حبائل صيد من ذوائبه فصاد قلبي باشراك من الشعر

وأحلى منه قوله :

خصر أدير عليه معصم قبلة فكان تقبيلي له تعنيق

وغاية الغايات قوله :

بعثت لي على فم الطيف قبله فاتاني بعض المسرة جمله »

وينبغي ان نلاحظ ان ابن حجة ممن يهيمون بالصبغة البديعية والصنعة البيانية في الكتابة ، وكتابه « خزانة الادب » يدور حول فنون البديع في الشعر والنثر ، كما انه يحكم هنا على اثبات لا على مجموع ما قاله ابن سناء الملك من الشعر .

ويقول ياقوت عن ابن سناء الملك : « وشعره كثير، واكثره جيد» ولو كان لي حق الاعتراض على ياقوت لاستأذنته في أن اقول عن شاعرنا:

---

١ ـ مطبق : ذائع قد طبقت شهرته الآفاق . والجأش : القلب والجنان . ومجنس : عريق .

٢ ـ خزانة الادب ، ص ٦٢ طبعة سنة ١٢٩١هـ . مطبعة تمر ، بالقاهرة .

شعره كثير ، وقليله جيد ، لان الصنعة استبدت بابن سناء الملك في كثير من الاحيان .

نعم ان ابن سناء الملك يميل الى اختيار الالفاظ الجزلة ، ولكنه يعتمد في الغالب على الثروة اللفظية ، ويغلو في هذا الاعتماد احيانا .

وهو شاعر مداح ، صاغ اكثر من نصف شعره في المدح ، وكأنه في ذلك يمشي على آثار ابي الطيب المتنبي ، وهو شاعر يغنى بالغزل والمجون ، وقال في الهجاء والرثاء والوصف والفخر والاعتذار والشكوى والحكمة والزهد .

وقد مدح اكثر من ممدوح : مدح صلاح الدين ، والملك المظفر تقي الدين ، والملك الظاهر غازي ، والوزير صفي الدين بن شكر ، ووالده القاضي الرشيد ، واستاذه القاضي الفاضل ، والقاضي الاشرف بن القاضي الفاضل ، والطبيب الرئيس موسى ، والملك العادل أخا صلاح الدين ، والعزيز والافضل ابني صلاح الدين ، وغير هؤلاء .

وهو يقلد في امداحه القاضي الفاضل ويتابعه ، وتكرر منه الاسراف في المدح وان حاول تلطيفه بقيد او تعليق ، كقوله في القاضي الفاضل :

لولا اعتقادي للشريعة مخلصا ... ما قلت ان كلامه مخلوق !

وقد ينقلب اسرافه الى سخف ، كأن يقول :

نلقى تراب مواطيه باعيننا ... وتحسد الرجل فيه قمة الراس

ولم يكن ابن سناء الملك في هذا الغلو نسيج وحده ، فقد شهد العصر العباسي الثاني شعراء آخرين يسرفون في امداحهم ، ويدعون لممدوحيهم القابا لا يرتضيها الدين ، ولا يقبلها العقل .

وقال ابن سناء الملك شعرا في الرثاء ، لانه رثى والديه وجده وأمه واقاربه واصدقاء له ، ولكنا نعجب حين لا نجد بين أيدينا شيئا من الرثاء قاله في أستاذه القاضي الفاضل ، ولا شيئا قاله في رثاء زعيمه صلاح الدين الايوبي ، فما سبب ذلك يا ترى ، وكل منهما صاحب فضل كبير على الشاعر ؟.

أيكون التفريط قد بلغ به مبلغ الاهمال ، أم أنه قال فيها رثاء لم يقع في أيدينا ؟.

ورثاؤه تقترن فيه القدرة الذهنية بالقوة الوصفية باللفتة الوعظية، وقد تتحرك في بعض مراثيه مشاعر تكسب رثاءه صبغة من عمق اللوعة مع صدق الحكمة ، كأن يقول في رثاء أمه :

اذكريني يوم القيامة يا ام ... لئلا اعد في الاشقياء
واشفعي لي ، فخبني تحت اقدا ... مك من غير شبهة وامتراء
فقريب لا شك يأتيك عني ... بقدومي عليك وفد الهناء
عجل الله راحتي من حياتي ... أنها في الزمان أعظم دائي
واذا ما الحياة كانت كمثل الدا ... ء كان الممات مثل الدواء

ويقول فيها أيضا :

انت عندي أجل من كل تأبيـ ... ـن ، ولو صبغت بالثريا رثائي
في ضميري ما ليس يبرز شعري ... لا ، ولو كنت أشعر الشعراء

ومع تقديرنا للوعة الشاعر يمكننا ان نلاحظ ما صاحب هذا الرثاء من صنعة وحشو ، كما في قوله : « من غير شبهة وامتراء » في البيت الاول من أبيات الاستشهاد السابقة ، وكقوله في البيت الثاني منها : « لا شك » ومن الصعب ان نعرف كيف يصاغ الرثاء بالثريا ...

وفي شعر الرثاء عند ابن سناء نجد بعض الابيات يثقل لكثرة تكرار الشاعر في البيت حرفا ، كقوله في رثاء صديق له :

لقد عفت عيشي بعد العفيف ... على العيش بعد العفيف العفاء

فقد كرر حرف « العين » في هذا البيت تسع مرات !.

وبعد هذا البيت يقول :

والا الصديق ، والا الصدوق ... والا الصفى ، والا الصفاء

حيث كرر حرف « الصاد » في البيت أربع مرات .

وكان ابن سناء الملك مولع بتكرار الحروف ، فنحن نراه في مقام الفخر يقول من قصيدته المشهورة :

ولو علمت زهر النجوم مكانتي ... لخرت جميعا دون وجهي سجدا

فقد كرر حرف « الجيم » في هذا البيت اربع مرات ..

واذا كان ابن سناء الملك قد مدح ورثى فانه قد هجا وذم ، وافحش في بعض اهاجيه افحاشا مرذولا ، ولكنا نراه احيانا يستر هذا الفحش في الهجاء بستار تدق رؤية ما خلفه الا على اصحاب النظر الثاقب ، وقد عد ابن حجة الحموي من ملح هذا الباب قول ابن سناء الملك في هجاء رجل يجمع بين الرجال والنساء، وقد اتى به على طريقة الهجو يبدو في صورة المدح :

لي صاحب أفديه من صاحب ... حلو التاني ، حسن الاحتيال
لو شاء من رقة ألفاظه ... ألف ما بين الهدى والضلال
يكفيك منه أنه ربما ... قاد الى المهجور طيف الخيال

ويروي ابن حجة عن الشيخ زكي الدين بن ابي الاصبع انه قال : « لقد تشبثت باذيال القاضي السعيد بن سناء الملك في هذا النوع ، بقولي فيمن ادعى الفقه والكرم » ، ثم ذكر ابياتا لا يسهل ايرادها .

وقال ابن سناء الملك في « الغزل » ، وهو يستغل قصائده في المدح ليزيد قوله في الغزل ، ولعل هذا يوحي الينا باديء ذي بدء ان غزله هنا مصنوع غير مطبوع ، وقد تطول المقدمة الغزلية في صدر قصيدة المدح ، حتى يبلغ هذه المقدمة عشرات من الابيات . ومن الممكن ان نقول ان هذا الطول يدل على قصر الباع في باب المدح ، كما انه من الممكن ان نقول ان هذا الطول يدل على مهارة في اصطناع الغزل وادعاء الهوى .

ولشاعرنا عشرات من القصائد في الغزل ، وقد تغزل فيمن يكون التغزل فيه مقبولا ، كما تغزل فيمن يعد التغزل فيه مرذولا ، وبعض غزله جيد ، يدل على براعة في الوصف الذي تسنده الصنعة اللفظية، ويسيء اليه ضعف الروح العاطفية . وهو في كثير من الاحيان يقول في الغزل متابعة وتقليدا ، ومن هذا القبيل تلك « المقدمات » التي أشرنا اليها آنفا .

ومن غزله الرقيق المقبول قوله ، وان لم يخل من اثر الصنعة :

فاقطع من حد الحسام اذا مضى ... حسام لها بين المحاجر والهدب
تطلع من بدر السماء الى أخ ... وتنظر من ريم الفلاة الى ترب
أحن لشعب نازل فيه قومها ... وما قومها قومي، ولا شعبها شعبي
ويلحون نفسي في هواها ، وانها ... شقيقة تلك النفس ريحانة القلب
وقد نقلتني عن طباع كثيرة ... وقد قلبت قلبي، وقد خلبت خلبي
تغير فتسبي باللحاظ عقولنا ... وكم من شجاع قد اغار ولم يسب

ويعد ابن سناء الملك من الناحية الاخلاقية والدينية منحرفا حين تغزل بالمذكر فأفحش ومجن ، ولا يقيه صفة الانحراف في هذا المجال ان يوجد في عصره كثيرون مالوا الى هذا الانحراف ، فلن ينقلب الباطل حقا مهما كثر مشايعوه ، كما ان الحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه.

واذا صدقنا ابن سناء الملك استطعنا ان نقول ان هذا النوع الماجن من الشعر لم يرد به صاحبه سوى ترويج شعره من ناحية ، والمطارحة به في المجالس الاضوائية الخافتة من ناحية أخرى ، وذلك دأب فريق من الشعراء في كل العصور ، ولو رجعنا الى فريق من شعراء عصرنا كالاساتذة : محمود غنيم والعوضي الوكيل واحمد مخيمر ، لوجدنا لديهم اخبارا وآثارا كثيرة تدور حول هذا الموضوع .

وابن سناء الملك يريد منا ان نصدقه حين يقول انه اراد بالغزل في المذكر ان يروج شعره ، ومن تعبيراته هنا : « قصدي به ترويج شعري » ، « وهو لا ينفق عندي » ، « حاشا تقاي وحلمي » .

وابن سناء الملك يعد من مجموعة الشعراء الذين عنوا عناية واضحة بألوان البديع في شعرهم ، ولذلك اعتمد عليهم ابن حجة الحموي في الاستشهاد والاستمداد من شعرهم ، وهو يفصل الالوان البديعية في كتابه « خزانة الادب وغاية الارب » .

ها هو ذا الحموي يورد لابن سناء الملك ابياتا في التورية ، وهي أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان حقيقيان ، او حقيقة ومجاز ، أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ، ودلالة اللفظ عليه خفية ، فيريد المتكلم المعنى البعيد ، ويوري عنه بالمعنى القريب ، فيتوهم السامع أول وهلة انه يريد القريب وليس كذلك ، ولاجل هذا سمى هذا النوع ايهاما (٣) .

والابيات التي اوردها لابن سناء الملك في التورية هي قوله :

اما والله لولا خوف سخطك ... لهان علي ما ألقى برهطك
ملكت الخافقين فتهت عجبا ... وليس هما سوى قلبي وقرطك

وقوله أيضا :

وفي الحي من صيرتها نصب ناظري ... فما آذنت في نازل الشوق بالرفع
تليه بفرع منه أصل بليتي ... ولم أر أصلا قط سعى الى فرع

وقوله :

ليس الا دمعي الذي من رأى ... جفني رآه كان دمعي هدبي
أنجم الدمع لا تغيب شروقا ... مع أني رأيتها في الغرب

وقوله :

صفاتك في كل الوجوه صحيحة ... فانحطك نصبي، وهوان صحفوا يصبي
حرست الحشا من لاحظيك بصارم ... فكسرة ذا الجفن من ذلك الغرب

وقوله - وهو مما سبق اليه الناس في هذا الباب - :

وفي القلب تصديع، وفي الوصل جبره ... وفي الخد دينار، وفي الجفن كسره

وبعد ان يشير ابن حجة الى ان ابن نباتة وغيره قد قلدوا ابن سناء الملك في ذلك ، يقول : « ولم يزل ابن سناء الملك يتلاعب في التورية باختراعاته ، ويسكنها في عامر ابياته ، الى ان ظهر بعده السراج ، فجلا غياهبها بنور مشكاته ، وتعاصر هو وابو الحسين الجزار والنصير الحمامي ، وتطارحوا كثيرا ، وساعدتهم صنائعهم والقابهم في نظم التورية ، حتى انه قيل للسراج الوراق : لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » (٤) .

ثم يشير الى تخرج ابن سناء الملك في التورية على يدي القاضي الفاضل ، فيقول : « وقيل ان الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لاهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره ، فانه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها ، وانزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها ، وممن شرب من سلافة عصره ، واخذ عنه وانتظم في سلكه بفرائد دره ، القاضي السعيد ابن سناء الملك ، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كاسها ، ومتمسكين بطيب انفاسها ، الى ان جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها ، والواسطة في عقد جمانها ، كالسراج الوراق ، وابي الحسين الجزار ، والنصير الحمامي ، وناصر الدين حسن بن النقيب ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر » (٥) .

وبعد ان يورد امثلة للتورية تستغرق اكثر من ثلاثين صفحة كبيرة يقول : « انتهى ما تخيرته ووعدت بايراده في باب التورية من كلام هذه العصابة التي مشت تحت العصائب الفاضلية ، وصار لها من بعده في نظم التورية اعظم روية ، وقدمت امامهم الذي صلت الجماعة خلفه ، وهو القاضي الفاضل ، وبعده القاضي السعيد بن سناء الملك ... » ثم ذكر بقية الاسماء كما وردت في النص السابق هنا (٦) .

ولا يكتفي صاحب الخزانة بهذا القدر من الاستشهاد المصحوب بالاعجاب من شعر ابن سناء الملك ، بل يعود بعد مرحلة صورة من حديثه ، فيتكلم عن اقسام التورية ، ومنها نوع يسمى « التورية المبنية » وهي ما ذكر فيها لازم المورى عنه قبل لفظ التورية او بعده ، ويورد من امثلتها بيتين سبقا لابن سناء الملك ، وهما :

اما والله لولا خوف سخطك ... لهان علي ما ألقي برهطك
ملكت الخافقين فتهت عجبا ... وليس هما سوى قلبي وقرطك

والشاهد هنا في كلمة « الخافقين » فانه يحمل ان يراد بهما قلبه وقرط محبوبه ، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه ، وهو مراد الناظم ، وقد بينه بالنص عليه ، فقد صرح بعد كلمة « الخافقين » بذكر القلب والقرط ، ويحتمل ان يراد من « الخافقين » المشرق والمغرب ، فاللغة تقول ان الخافقين هما المشرق والمغرب ، او هما طرفا السماء والارض ، وخوافق السماء الجهات التي تخرج منها الرياح الاربع (٧) .

وتفسير الخافقين بالمشرق والمغرب هو المعنى القريب المورى عنه في بيتي الشاعر (٨) .

ثم يعود صاحب الخزانة فيجعل من انواع التورية نوعا رابعا هو « التورية المهياة » وهي التي لا تقع فيها التورية ولا تتهيأ الا باللفظ الذي قبلها ، او باللفظ بعدها ، او تكون التورية في لفظين لولا كل منهما لما تهيأت التورية في الآخر ، والمهياة بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : والقسم الاول منها هو الذي تتهيأ فيه التورية من قبل .

واستشهدوا على ذلك بقول ابن سناء الملك يمدح الملك المظفر صاحب حماة :

وسيرك فينا سيرة عمرية ... فروحت عن قلب ، وافرجت عن كرب
واظهرت فينا من سميك سنة ... فاظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب

ويذكر ابن حجة ان الشاهد هنا في كلمتي « الفرض والندب » وهما يحتملان ان يكونا من الاحكام الشرعية ، وهذا هو المعنى القريب المورى به ، ويحتمل ان يكون « الفرض » بمعنى العطاء ، و « الندب » صفة الرجل السريع في قضاء الحوائج الماضي في الامور ، وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه .

ولولا ذكر كلمة « السنة » قبل ذلك لما تهيأت التورية في كلمتي « الفرض والندب » ، ولا فهم منهما الحكمان الشرعيان اللذان صحت بهما التورية . (٩)

وكما اكثر ابن سناء الملك من « التورية » اتى في شعره بمحسن بديعي آخر يسمى « الاكتفاء » ، وهو ان يأتي الشاعر بيت من الشعر ، وقافيته متعلقة بمحذوف ، فلم يفتقر الى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه ، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن ، فيما يقتضي تمام المعنى .

ويستشهد صاحب الخزانة على ذلك بقول ابن سناء الملك :

رأيت طرفك يوم البين حين همى ... والدمع ثغر ، وتكحيل الجفون كما
فاكفف ملامك عني حين الثمه ... فما شككت باني قد لثمت فما
لو كان يعلم - مع علمي بقسوته ... تألم القلب من وخز الملام لما

والشاهد في لفظة « لما » في البيت الاخير ، لان التقدير : « لما لامني » أي لامتنع عن لومي ، ودل على ذلك لفظ « الملام » المذكور في البيت .

ثم يورد شاهدا ثانيا على نوع ثان من « الاكتفاء » يكون المحذوف

---

٣ - خزانة الادب ، ص ٢٩٥ .
٤ - المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .
٥ - الحلبة - بفتح فسكون - الدفعة من الخيل في الرهان ، وخيل تجتمع للسباق من كل أوب للنصرة ، وجمعها حلائب .
٦ - المرجع السابق ، ص ٢٩٨ وص ٣٣٧ .
٧ - النهاية لابن الاثير ، ج٢ ص ٥٦ طبعة الحلبي .
٨ - خزانة الادب لابن حجة ، ص ٤٣٢ . ٩ - المرجع السابق ، ص ٤٣٣ .

فيه بعض كلمة ، وذلك قول ابن سناء الملك :

أهوى الغزالة والغزال ، وانما ... نهنهت نفسي عفة وتدينا
ولقد كففت عنان عيني جاهدا ... حتى اذا أعييت أطلقت العنا

والشاهد في لفظة « العنا » لان أصلها « العنان » فحذف منها النون لدلالة كلمة « عنان » الاولى عليها . (١٠)

وكذلك برع ابن سناء الملك في « حسن التخلص » ، وهو ان يستطرد الشاعر المتمكن من معنى الى معنى آخر يتعلق بممدوحه ، بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الاول الا وقد وقع في الثاني ، لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما ، حتى كأنهما افرغا في قالب واحد.

وبعد ان يشرح ابن حجة معنى حسن التخلص بما مضى ، ويورد عليه جانبا من الشواهد يقول :

« ويعجبني من مخالص القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك قوله من قصيدة يمدح بها القاضي الفاضل ، اتى فيها بحسن التخلص، ولم يخلص من اشراك عيون الغزل لغرابة اسلوبها :

ضنت بطرف ظل بعدي سقمه ... ارأيتم من ضن حتى بالضنى ؟
يا عاذلين جهلتم فضل الهوى ... وعذلتم فيه ، ولكني أنا
اني رأيت الشمس ثم رأيتها ... ماذا علي اذا هويت الاحسنا ؟
وسألت من أي المعادن ثغرها ... فوجدت من عبد الرحيم المعدنا (١١)

وما أحلى ما قال بعد المخلص :

أبصرت جوهر ثغرها وكلامه ... فعلمت حقا ان هذا من هنا

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الملك المعظم ، مطلعها :

تعنقت لكن بالحبيب المعمم ... وفارقت ، لكن كل عيش مذمم

وما أحلى ما قاله بعده :

وباتت يدي في طاعة الحب والهوى ... وشاحا لخصر ، او وسادا لمعصم

وما أبدع ما قال منها :

سعدت ببدر خده برج عقرب ... فكذب عندي قول كل منجم
واقسم ما وجه الصباح اذا بدا ... بأوضح مني حجة عند لومي
ولا سيما لما مررت بمنزل ... كفضلة صبر في فؤاد متيم
وما بان لي الا بعود أراكة ... تعلق في أطرافه ضوء مبسم

سبحان المانح (١٢) ، والله لقد احرز القاضي السعيد قصبات السبق برقة هذه الالفاظ ، وغرابة هذه المعاني ، ولقد خلب القلوب ، وجلا ظلمة الافهام بقوله :

وما بان لي الا بعود أراكة ... تعلق في اطرافه ضوء مبسم

واظنه من المخترعات والله أعلم . وما أحلى ما قال بعده :

وقفت به اعتاض عن لثم مبسم ... شهي لقلبي لثم آثار منسم
ولم ير طرفي قط شملا مبددا ... يقابله الا بدمع منظم
ولم يسل قلبي او فمي عن غزالة ... وعن غزل الا بمدح المعظم » (١٣)

وكذلك اتى ابن سناء الملك في شعره بلون بديعي آخر يقال له « الانسجام » ، وهو ان يأتي الكلام لخلوه من التعقيد كانسجام الماء في انحداره ، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة الفاظه ان يسيل رقة ، وقد ذكر ابن حجة ان اهل الادب عدوا من الانسجام المرقص قول ابن سناء الملك :

لا تخش مني ، فاني كالنسيم ضنى ... وما النسيم بمخشى على الغصن

ابن سناء والموشحات

الموشحات جمع موشحة ، او موشح ، والموشحة منظومة مستحدثة انتشرت عندما ازدهر الغناء ، وبخاصة عند الاندلسيين ، فقيل هم مبتكروها ، وقيل ان مبتكرها هو ابن المعتز من شعراء المشرق ، وتصرف أصحابها في الاوزان والقوافي مع المحافظة عليها ، فتمسك بعضهم بالشطرين المتساويين ، واطال بعضهم شطرا وقصر آخر ، بحيث يؤلف الشطران بيتا على التفعيلات القديمة ، واتى بعضهم بتفعيلات جديدة .

ومن أصحاب الموشحات المشهورين في المغرب عبادة القزاز ، وابن عبد ربه ، والاعمى التطيلي ، وابن سهل الاسرائيلي ، ولسان الدين بن الخطيب ، واشتهر بالموشحات في المشرق ابن سناء الملك ، وهو صاحب كتاب « دار الطراز » ، وهو أهم كتاب في موضوع الموشحات تركه السلف . (١٤)

ولقد روى الصفدي ان ابن سناء الملك اتصل برجل مغربي له خبرة بالموشحات والازجال ، فأخذ عنه ابن سناء خبرة بالموشحات ، وبرع فيها وزاد عليها ، ومع هذا نجد ابن سناء في بعض رسائله ينفي انه استعان بأحد في هذا المجال ، ولكن هناك من يؤكد ان ابن سناء قد تأثر في الموشحات بالوشاحين من اهل المغرب كالاعمى التطيلي ، وعبادة بن ماء السماء ، وعبادة القزاز ، وابن بقي والحصري وغيرهم ، ومهما تكن حقيقة الامر فابن سناء الملك هو اول من برع في الموشحات من أهل المشرق .

الاستعانة بالجملة القرآنية

استعان ابن سناء الملك في شعره بالجملة القرآنية ، وهذه الاستعانة هي ما يسميه علماء البديع « الاقتباس » . وقد تحدثت عن هذه الاستعانة في دراستي عن شكيب ارسلان ، ودراستي عن رشيد رضا ، وهذا موضوع يحتاج الى المتابعة والتوسع .

يقول ابن سناء الملك :

قميصك الموروث عن يوسف ... ما جاء الا صادقا في الدم

وهو هنا يستعين بقول الله تعالى : « وجاءوا على قميصه بدم كذب » .

ويقول :

يدافعني عن وصله بتجهم ... فياليته لو كان يدفع بالتي

وهو يشير الى قول الله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن » .

ويقول :

رجما لهم من مغازيهم اذا قفلوا ... حمالة السبى ، لا حمالة الحطب

وهو بهذا ينظر الى قول الله تعالى : « وامرأته حمالة الحطب » .

ويقول :

تطوي البلاد وأهليها كتائبه ... طيا كما طوت الكتاب للكتب

وهو يستعين في هذا بقوله عز وجل : « يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب » .

ويقول :

وقالوا لقد آنست نارا بخده ... فقلت: واني قد وجدت بها هدى

استعان في هذا بقول الله سبحانه : « أو أجد على النار هدى ».

وفي بعض الاحيان تظهر في شعره روح فقهية ، كقوله :

كيف خلدت في جهنم ، ذا الصد ... وديني في حبك التوحيد ؟

وكأنه يريد ان يقول : يا صاحب الصد عني ، والبعد مني ، كيف تكتب علي خلودي في نار الحب ولهب الحرمان ، مع أنني موحد في حبك ، اذ لم أحب سواك ، وأهل التوحيد لهم الجنة ، لا جهنم .

كتب ابن سناء الملك

لابن سناء الملك طائفة من الكتب هي :

---

١٠ ـ المرجع السابق ، ص ١٥٨ و ١٦٢ .
١١ ـ عبد الرحيم: هو عبد الرحيم البيساني وهو القاضي الفاضل
١٢ ـ ما زال هذا كلاه ابن حجة .
١٣ ـ المرجع السابق ، ص ١٩٢ .
١٤ ـ انظر الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٧٨٤

الماضي يخرج عاشقاً من البحر

كان البحر يستيقظ من نومه في عينيك
ويداك تسافران بعيدا عن يدي
حين كان لابتسامتك
تلك الاوراق المتساقطة
من ملوحة الافكار الحزينة
على شاطىء . كيف نقول انه هنا
وقد اخذته اشياء ذكرياته الرملية
ذات النمش القوقازي الى هناك
تحت ضوء قمر معتم
فقد حبه في قعر موجة
لم تجد مكانا لحنينها سوى السفر

من كان يصدق
ان البحر يفعل ذلك
وعلى مهل تهاجر فينا
ذكرياته ذات النمش القوقازي
ورغبة الاخرين البدائية
تسبح كأسماك كونية في بعادنا
مع ان الجزر يتشبث بأجساد السفن
الهاربة من حديدها الى الحب
انها لهفة مجانية للهروب
وقد ألقت علينا
كل ما في ضلوعها من عطور زهور البحر
المتآخية مع شموس اشعار الاشجار
وافواه الاسماك الذهبية
تلقي حنين المسافرين

طعاما للهواء
ليقرأه الحزن المطوي اجنحته البيضاء
على المجبين

معي ساعات من تعب الامواج
تسرف برغبتها الحائرة
عندما تلتقي السفن بأشواق السفن
والبحر يستيقظ من نومه
في عينيك المسافرتين
منفصلا عن ماضي الزاوية
الذي كان عذابك
يشد قماش لوحته
ويتلوى في روحك
حينما تغتسل واجهة المساء بالحنين

الواجهة التي كنت تودين ان تسافري منها
وتطيري من فوق الشتاء الى الحلم
ان اللامكان وجواهري
شيئان يتحدان بك
ويحلان في اغتصابك القوقازي للاشياء
التي أضاءت مصابيحي
حيث الماضي يخرج من البحر
عاشقا مبللا بالعتاب
« وبيروت » تتعرف عليك في اشعاري
ولكل منا زوارق حنينه في قلب الاخر

حلب — لؤي فؤاد الاسعد

---

١ ـ ديوان شعره .

٢ ـ دار الطراز في الموشحات .

٣ ـ فصوص الفصول وعقود العقول ، وهو مراسلات بينه وبين القاضي الفاضل .

٤ ـ روح الحيوان ، وهو تلخيص لكتاب الحيوان للجاحظ .

٥ ـ مختارات من شعر ابن رشيق القيرواني ، جمع فيه ما استحسنه من شعر ابن رشيق .

٦ ـ منظومة في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، يوجد الجزء الثاني منها في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، ويقال انها لابن سناء الملك .

٧ ـ مساعد الشوارد : لم يعثر عليه .

ومن الواضح أن أهم هذه الكتب ثلاثة ، هي ديوان شعره ، وكتاب فصوص الفصول الذي يعطي صورة كافية عن نثره ، ودار الطراز الذي يعطينا فكرة واسعة عن فن الموشحات .

القاهرة — أحمد الشرباصي

دواليب الهواء

بقلم رياض نصور

قصة

عند منعطف الزقاق الضيق . وعلى حجرة سوداء ربضت بصمت . كان يجلس بهدوء . يحمل فوق ظهره اثقال الثمانين ، ويمد يده المعروقة مقتطعا اعشابا يابسة حشرت نفسها بين مقعده الحجري والحائط اللبني المتآكل . كان يرمي الاعشاب بعيدا ويرفع يده الى وجهه الجعد ،ليطرد ذبابة متطفلة . وبالقرب منه سلة صغيرة متآكلة تحتوي على قضبان صغيرة تعلوها اوراق ملونة ،صنعت على شكل نجمة مربوطة بشريط رفيع . كان يتناول احداها يديرها بيده ، ثم ينفخ عليها بأنفاسه اللاهثة ، فتدور قليلا لتقف مجددا فينظر اليها بحسرة والدمعة في عينه .. ويغفو قليلا ، ثم يستيقظ فجأة من هذه الاغفاءة العابرة ليشاهد اطفالا صغارا يحاولون قطع الزقاق ، فينادي بصوت ضعيف يحاول ان يجعله عاليا .

دواليب الهواء يا اولاد .. دواليب الهواء يا اولاد .

ويمسح السائل اللزج من فوق شاربه الصغير بطرف يده . وينظر بعينيه الزرقاوين المتعبتين الى البعيد ، حيث اختفى الاطفال في عطفة الشارع ، فيتأوه بصمت وغضون الثمانين الشاحبة تزداد بروزا وانحناء مشكلة اخاديد عميقة .

وتعود يده تداعب ما بقي من اعشاب مخبوءة في ركنها المهجور . ويغفو والاحلام السوداء تخيم عليه ... ثم يعود فيستيقظ من احلامه على صوت الباب الخشبي يفتح ، وصوت زوجته ينطلق كمواء القطة ضعيفا ، رتيبا ، موصولا ..

— اما زلت عندك ايها الكسول ؟ الم تترك هذا الحي القذر اللعين ؟ .. حي اجدادك .. حي القطط والشحاذين ؟ .. أنسيت انه يوم العيد ؟ .. الم اسهر البارحة الليل بطوله لأومن لك دواليب الهواء ، لتبيعها ... لتعود وجيوبك مملوءة بالقروش . ؟؟؟ ادخل المدينة .. امض في شوارعها المكتظة بالمارة حيث الغنى والجاه والمال . اذهب ايها الخامل . انا عملت الدواليب ، وانت تبيعها لا تعد الى البيت ان لم تبعها كلها . اسمعت ؟ كلها ... اما ان رجعت فارغ اليدين ، فلا تنسى ان (بدرية) بانتظارك ؟؟ .

— دواليبك لا تمشي يا امراة . لا تباع . انظري ..

ورفع واحدا منها وعرضه للهواء ، وهو يقف بجسده المحني المتآكل . كان القضيب رفيعا ضعيفا عتيقا كصاحبه ... ووصله صوت زوجته صارخا منددا من جديد :

— عندما يهب الهواء ستعمل دواليبي . ستدور بيد الاطفال الصغار وهم يركضون بثيابهم المزركشة ... انها دواليب جيدة كالدواليب التي كنت اصنعها لولدي امين ..

وغصت بصوتها ، واطبقت الباب الخشبي بشدة وهي تنشج ... وتضرب الباب وتصرخ ...

ومرت يد الشيخ لتمسح اللزوجة العالقة بطرف شاربه مرددا — امين . ولدي امين ..

مضى في طريق المدينة. حاول ان ينادي على دواليبه غير انه لم يقو . فيد حديدية تشد على عنقه ويحس انه يكاد يختنق ، والاصابع الفولاذية تضغط وتضغط بقساوة ..

اين امين ؟ ولده الوحيد ، بهجة ايامه وسلوته وسروره . امين ابنه الذي حمله صغيرا على كتفه . كان بالنسبة له دنياه وما بها من مباهج وسعادة وحياة ..

بعد ثلاث بنات رزق بامين ففرح وابتهج ورقصت له ولزوجته الدنيا. غير انها عادت وعبست من جديد . رزق بثلاث فتيات اخريات . اصيب اثنتان منهن بشلل الاطفال واما الثالثة فكانت ضعيفة البنية ، كثيرة المرض ، شديدة الصراخ .. ومن جراء المرض المتواصل ، اصبحت عصبية المزاج ، عنيفة مستميتة في الدفاع عن حقها المسروق في الحياة .كانت تضرب وتكسر،وعندما لا تجد من تضرب وما تكسر ، تلطم وجهها ، وتشد شعرها ، وتصرخ حتى تتعب ، وتتلاشى : فتهوي حيث تكون كجيفة ميتة لا حس لها ولا حياة .

بين ست من البنات . يصرخن ويتشاتمن ، ويتشاجرن باستمرار ، عاش امين حياته الاولى . عاشها كوردة جميلة تفتحت ، واينعت في مقبرة تملؤها الغربان السود ، وتنعق في ارجائها البوم . في هذا الجو العبوس الكئيب ، كان يعود الى البيت باشا ، هازجا ، طروبا ، يقبل يدي والده ووجنات امه . ويحدثهما عن النجاح المستمر الذي يلقاه في مدرسته .

لا شيء يقف حائلا في وجه نشاط امين وشجاعته . كان مبرزا في كل الحقول الدراسية . ومثالا يحتذى في النباهة والفطنة والذكاء .

ويذكر العجوز ايضا .. عندماكان يعود من المنشرة متعبا في المساء ويدخل منزل الغربان والعنكبوت ، ليجد ولده الحبيب جالسا متألقا بين كتبه ، كالشمس تشرق بهجة على الكون فتمحو كآبته . ويمضي الرجل

الى ولده ويضمه الى صدره مرددا . انت كل ما املك يا بني . انت الدنيا .. وانت هبة الحياة الكبرى . ولا شيء لي الا انت ..

ويمضي ولده من نجاح الى نجاح، ويدخل المدرسة الحربية ، ويتخرج منها برتبة ملازم .

ويقف العجوز عند زاوية الشارع الكبير ويتكىء بذراعه الضعيف على عمود الكهرباء . ويمضي باحلامه من جديد .

عندما رآه لاول مرة ، يدخل الزقاق بثوبه الكاكي وطلعته البهية . يعتمر قبعته ، ويمضي بخطو رتيب جميلا فتيا ... يضمه الى صدره ويبكي مقبلا وجنته متحسسا النجوم المتألقة على كتفيه . وتزغرد زوجته، ويلتف حوله اخواته متعلقات به ... بسترته ... بيديه ، واهل الحي كلهم يتناقلون خبر تخرج امين ، ومدى نجاحه .. ويصحو العجوز على صوت بائع ينادي :

ــ دواليب الهواء يا اولاد ... دواليب الهواء يا اولاد .

انه شاب مفتول العضلات ، يحمل دواليب جيدة الصنع تدور لاقل نسمة هواء .. دواليب مصقولة لامعة .. وتحلق حوله الاطفال يشترون بدراهمهم . بينما كانوا يمرون به ويتحسسون دواليبه ولا يشترون ..

ماذا يفعل ؟ مضى في طريقه من جديد . واحس بيد طفل صغير ترتفع باتجاهه ، وسمعه يترغل بكلمات غير مفهومة ، وحاولت اخته اخذه غير انه كان يتعلق به ويبكي ، وامتدت يده الى دواليبه ، واخذ منها واحدا اعطاه للطفل الصغير فافتر ثغره عن ابتسامة ملائكية طافحة ، ومضى يركض في طريقه

لم ابع شيئا . ليس لي الا احلامي . ليس لي الا ذكرى امين .. امين ولدي .

ــ دواليب الهواء يا اولاد .. دواليب الهواء يا اولاد ..

وغص بدمعة من جديد . ومرت يده لتمسح السائل اللزج عن شاربيه .. ووقف امامه بضعة اطفال صغار وصرخ احدهم بوجه رفيقه : اسرع يا امين . وتضاحك الاطفال والصغير الاشقر الحلو ينتقي دولابا بورقة حمراء ، ويدفع بقروشه الخمسة الى يد العجوز .

ــ لا لا خذه يا بني . يا حبيبي ، يا بني .

وتمضي يد العجوز تمسح رأس الطفل بهدوء .. ويأخذ الطفل قروشه الخمسة ، ويمضي حاملا



رياض نصور

●

دولابه ضاحكا .

اما الشيخ فيجلس على حافة مخزن مغلق .. ويروح باغفاءة حالمة .. وتمضي الاحلام تراود خياله من جديد . وجاء شهر حزيران المشؤوم من عام ١٩٦٧ . وهاجم الصهيونيون فجأة مطاراتنا وحدودنا وجيوشنا . وكان ابنه امين احد الجنود الاشاوس الذين استحكموا مكامنهم . كانوا ستة جنود مع الملازم امين ، يتسلحون برشاشات

ومدافع في مرتفع يطل على الطريق المؤدي الى احدى القرى . وكان هذا هو الممر الوحيد لقوات العدو وبعد عدة غارات قامت بها طائراته . اتصل امين بالقيادة وتحدث الى احد الضباط ، فعلم ان الجيوش العربية تراجعت ، فالقى الهاتف جانبا وهو يبكي ويضحك . ضرب بقبضته على الحائط امامه وصرخ باعلى صوته . الجيوش العربية لا تتراجع . وسنبقى هنا ، سنبقى في مواقعنا حتى النصر .. لن ننهزم .. سنقاوم .. لا الا .. انهم لن يتراجعوا .. سنبقى .. سنموت .. الموت ولا الهزيمة . كان يرفع يده في وجه الطائرات التي كانت تلقي بحمولتها من المتفجرات وقنابل النابالم وتمضي. كان يصرخ ، وقد كفت المدافع المضادة للطائرات عن القصف . ولم يبق مقاومة اية مقاومة .. او تدخل الجيوش العدوة ارضنا ، وتحتل حياتنا وتدمر منشآتنا . لا . .. ومضى في اتجاه التل ونادى جنوده الستة ، ووقفوا في مرابضهم كالاسود .

وتوقفت الطائرات المعادية عن القصف . وهدأت . ظل امين وبالقرب منه رشاشه وقنابله ومعداته . كان وجنوده كتلة اعصاب متوقزة . وكان الليل المجنون يستعر في كل مكان .. قال له احد الجنود :

ــ سيدي الملازم .. كل الفرق المتمركزة تراجعت . هكذا جاءت الاوامر . المقاومة مستحيلة .

فصرخ به امين قائلا :

ــ هنا ستموت ايها الجبان . هنا قبرك وقبري وقبرنا جميعا . لن نتخلى عن هذه الارض انها لنا ملكنا نحن . سنسقي هذه الارض بدمائنا وستزهر الرياحين . وستمحي الصخور .. وتزهر الارض كل الارض ، انها ملكنا نحن . بدمائنا تسقى وبدمائنا تعيش وتزدهر .

واضاءت السماء انوار كاشفة ،

وهم في مربضهم ينتظرون . وحلقت عدة طائرات على علـو منخفض ، وحومت طائرة هيلكوبتر استطلاعيـة اكثر من مرة . ولم يمض زمن طويل الا وكانت دبابات العدو وخلفهـا سيـاراته محملة بالجنود تظهر عند اول الممر . فتفرق جنوده فـي اتجاهات ثلاثة وامرهم باطلاق النار وتفجير القنابل والصواريخ المدمـرة .. احترقت دبابة وثانية ، وتساقط جنود الاعداء تحت وابل من نيـران رشاشاتهم وقنابلهم ومدافعهم استمرت المعركة اكثر من ساعة ، استأسـد بها امين وجنوده الستة .. وفجأة ويا للهول انقضت الطائرات كالصواعق مشتركة في المعركة وتهاوى اميـن الشجاع البطل .. ورفاقه الستـة وصمتت المنطقة وعم سكون مخيف .

كانت الدماء الذكية قـد طهرت الارض الموات . ارض المعركة . ارضنا نحن . دماء تفجرت من اوردة تؤمن بالصمود والحق والحياة .

ما احلى الموت ؟ ما انبل التضحية .. تأدية الرسالة .. الاستشهاد ولا الهزيمة تلك هي القضية . ومـن يتراجع عن تأدية الواجب يسهم في خسارة القضية وضياع الهدف .

ضاع ولدي ؟ مات وحيدي ،انتهى كل شيء .. لم تنبت شجرة . لـم تنتصر قضية ؟ لـم تزهـر وردة الاشواك في كل مكان النباتـات الطفيلية تعشعش في الجدران ... الافاعي السامة تتغلغل فـي قلب الارض ، لا شيء يقف في وجه سمها المدمر .. العالم يفنى ، ويـذوب ويتلاشى .. لا شيء . ماذا بقي له ؟ للشيخ المتآكل الفاني ؟ ماذا بقي له ؟ لا ارض ولا وطن ولا كرامة . كم ود ان يلقي بنفسه تحت عجلات سيارة راكضة ؟ كم ود ان يكون لقمة في فم الامواج المتلاطمة تكسره تذيبه تفتته على الشاطىء . تجعله ذرات ذرات .. لاشيء . حفنة غبار في فم الزمن لا ماضي ، ولا حاضر ، ولا مستقبل! من يطعم بناته ؟ .. اثره .. حثالة نفسه المتألمة في الحياة ومن الحياة.

ــ دواليب الهواء يـا اولاد .. دواليب الهواء يا اولاد ..

هذا هو واقعه .. عجوز تجـاوز الثمانين يحمل عصيه الجافة ويمضي في شوارع المدينة بأنفاسه المتقطعـة مناديا على بضاعة رديئة ، تافهـة كتفاهـة الحيـاة نفسها ، كحقارة انسانيته كانسان . لئيمة كلؤم كيانه الاجتماعي .

وتساءل من انا ؟ حشرة تافهـة ككل الحشرات الدابة على الارض . ككل من يأخذ صورة الانسان وليس الا انموذجا اوجده مثال مجنون .. ليس هو من تصوير الاله الحقيقي الذي اوجد الانسان .. انه مجـرد صورة مهزوزة في مجتمع مهزوز .. انه لا شيء .. والتفاهة تحيط بـه ويحتويه الضياع ، ويحلق فوقـه الفراغ من كل جانب .

ــ دواليب الهواء يا اولاد ... دواليب الهواء يا اولاد .

اية دواليب واي هواء ؟ دواليب لا تدور ؟ وهواء جامد ، محـرق ، بغيض تحمله له المرتفعات التي كانت مربض اسود ، فاصبحت دنيـا خفافيش ومرتع غربان .. لقد ماتت الاسود واضمحلت المبادىء والاعراف، وخيم العلم الاسود فوق جبال النار .. النار التي تحرق كل شيء .. النار التي لا تنطفىء ..

ايتها النار .. لقد كنت حياتي ، ولكـن .. ؟ ..

ويركع العجوز وهو يبكي مرددا : ... امين زهرة واحدة تفتحـت واينعت وماتت في صحراء .. من يدري ؟ ربما ستزهر هذه الصحراء ؟ ربما ستعود روحه الينا مع الفجر الجديد حاملة النور والصمـود والكرامة .

ويستيقظ العجوز على صوت يدعوه (ابو امين) .

نعم من انت ؟ ماذا تريد ؟ اتركني في غيبوبتي ، في جنوني ، في ضياعي الحزين ؟

ــ انت لا تعرفني اما انا فاعرفك .. اعرف احزانك .. كان الله في عونـك .

ــ شكرا لك .. ولكن لا شيء يبعد الصخور التي تربض على صدري . لا شيء يجعلني استبشر للحياة ، والظلام يخيم في كل آن .

ــ استبشر خيرا يا ابا اميـن ؟ فعين الحق ترعانا . وقضيتنـا اصبحت قضية الامم وشاغل الناس. وتربة امين ستزهر فـلا واقحوانا ونسرينا .. وستنضد مفرق الزمن باكليل من غار .. استبشر يـا ابا امين واضحك .. البارحة التحق احد ابنائي بالجيش وقال لي :

ــ سأمضي يا ابي لتحرير الارض بعزم وصدق وايمان ، لاخدم قضيتي ووطني . لم تعد الارض مهزلـة اصبحت حقيقة واقعة . لن تبقى ما لم ترو بالدماء .. امين كان قبسا ، كان نبراسا ، ونحن الان كلنا امين .

وينظر اليه الشيخ بصمت سائلا : من انـت ؟

ــ يكفي انني اعرفك يا ابا اميـن ... وينظر اليه ابو امين وعلامـات الاستبشار تبدو على وجهه المغضـن بشبه ابتسامة .. كالشمس تبـدو من غلال غمامات سود . لا شيء .. سـوى الامل .

تابع الرجل قائلا : ولدي ورفاقه كتلة اعصاب متحفزة تنتظر سـاعة الصفر . تنتظر بدء المعركة . لا شيء يبقى سوى المجد ، سوى الكرامـة وسوى المستقبل . سوى الارض . هذه الارض ارضنا ، وهي لنـا وسنسترجعها حتما من الباغي يـا ابا امين . انها كل ما نملك وهـل يبذل رخيصا انسان ما يملك . ؟؟ ويردد العجوز : وهل يبذل رخيصا انسان ما يملك ... ؟ امين ولدي .

وتمتد يد الرجل الى الدواليب . دواليب الهواء فترفعها من ضريحها .. خذ ، ويلقي بيده قطعة مـن النقود الكبيرة . ويستيقظ العجوز

شاطىء الاحلام

★

رعاك الله ، عودي للشمال ، لشاطئك الملفع بالجمال
وأصغي للمويجات العذارى ، لعل بها بقايا من سؤالي
لقد حملتها سري ، فراحت تبوح به لحبات الرمال
فرفقا بالرمال ، لان منها يصوغ البحر وهاج اللآلي !

أحب اليم مثلك ان يناجي اذا خطرت مناجاة ببالي
وان عز الوصال ، جعلت دربي مويجات الاثير الى الوصال
لعلك ، ان سمعت ، سمعت قلبا يتمتم في خشوع وابتهال
أنوفا ، لا يرى الا أبيا ويقطع وحده عتم الليالي
ويبسم ان رآك ، وحين ينأى يعيش على مواعيد الزوال

لأنت صفاء عمري ، لا أداجي وانت حنان قلبي ، لا اغالي
ضفرت لك الاماني النشاوى سطور هوى منمنمة الدلال
وذرذرت الحنين بكل حرف وقافية مجنحة الخيال
وكنت مجرحا ، فسلوت جرحي ، ولكن التجارب لا توالي
وعدت ، بمهجتي جرح جديد ، ويا سلمت حياتك ، لا تبالي
فداك العمر ، لا تشقي لصب شقي ، هام بالطهر الحلال
وعودي للشمال ، رعاك قلب مشوق ، من شمالي للشمال

وان ذكرى محبتنا تهادت ببالك ، مثلما تحيا ببالي
فقولي : انه ما زال يحيا على احلامه الزهر الغوالي

فوزي عطوي

على الورقة النقدية في يده . يستيقظ بعد عذاب مرير . يستيقظ والدمعة في عينه والحرقة في صدره . يستيقظ والوف من المطارق تضرب راسه بعنف وشراسة ويمضي في طريق العودة الى الكهف . .

ولكن الشمس قد تشرق على حيه من جديد ، ويعود النور ، وتعم الفرحة ، ويزدهي الكون باشراقة صباح سعيد جديد . وتتحرر الارض . ويجلو الظلام ويتفتح اكثر من زهرة لاكثر من مليون شهيد .

اللاذقية رياض نصور

منبر المسجد الاقصى المبارك ومحرابه

بقلم الشيخ طه الولي

***

ان الحريق الذي افتعله اليهود في المسجد الاقصى المبارك يوم الخميس الواقع في ٨ جمادى الاخرة سنة ١٣٨٩ هـ الموافق في ٢١ اب سنة ١٩٦٩ م. التهم المنبر الذي اعده السلطان الملك نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) واتمه ابنه الملك الصالح السلطان اسماعيل سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ووضعه في مكانه الحالي في المسجد الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

وقد رأينا ، في هذه المناسبة ان نذكر نبذة عن تاريخ هذا المنبر الاثري الرائع والمراحل التي مرت عليه مع الكتابات التي رقمت فيه ، لعل اهل الضمائر الحية من المسلمين وغيرهم يدركون بشاعة الجريمة النكراء التي ارتكبها اليهود بحق هذه التحفة المقدسة والاثر الفني الجميل ويعملون ، قبل فوات الاوان ، على تدارك بقية المقدسات الدينية في بيت المقدس قبل ان تصل اليها يد اليهود ، اعداء الحضارة والانسانية ، بالتدمير والخراب .

لماذا وكيف صنع نور الدين هذا المنبر

ان وراء حرص السلطان الملك نور الدين الشهيد المعروف بلقب : « ذو اليد » على صنع هذا المنبر قصة رائعة من قصص الايمان الراسخ والاخلاص العميق ، لا بأس من عرضها على ابناء جيلنا لما فيها من عظة بالغة وعبرة مفيدة لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ..

فقد ذكر صاحب كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية المعروف باسم ابي شامة ، انه جاء الى السلطان نور الدين ذات يوم جماعة من العلماء ، فلما انتهوا اليه وجلسوا بين يديه قال قائلهم :

« ايها السلطان نطلب اليك ان تبتسم . »

فسألهم السلطان وعلام الابتسام ؟ فقال الرجل : جئنا اليك ايها السلطان نروي عليك بسندنا المتصل الى رسول الله صلى الله عليهوسلم حديثا مسلسلا قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم ، ومن شروط الحديث المسلسل ان يفعل راويه مثلما كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحدث به .

فالتفت اليهم السلطان نور الدين والاسى يكاد يفطر فؤاده وقال : « ... كيف ابتسم ايها القوم ، والمسجد الاقصى المبارك في بيت المقدس راسف في قيود الذل والهوان تحت سنابك خيل الاعداء .. »

وكان الصليبيون ، يومئذ ، يحتلون المدينة المقدسة ويتخذون من المسجد الاقصى المبارك معبدا دينيا لهم .

ومن ذلك اليوم ، صمم هذا السلطان المجاهد ، ان يصرف كل همه في اعداد العدة العسكرية لمناجزة الصليبيين القتال وانقاذ المقدسات الاسلامية من تحت وطأتهم ليعود المسجد الاقصى المبارك الى سابق عهده تحت راية التوحيد الاسلامية ، وبادر من فوره الى اصدار امره بأن يصنع للمسجد الاقصى المبارك منبر يليق بمكانته الدينية لكي يكون هدية منه خالصة لوجه الله تعالى ويبقى خالدا في مكانه الى ابد الابدين .

وبالفعل ، فان عددا من امهر النجارين في مدينة حلب بدأوا باعداد المنبر واستمروا في صنعه عدة سنين حتى جاء قطعة فريدة من نوعها من حيث الدقة والجمال والزخرفة ويقال بأن هؤلاء الصناع حرصوا على اتمام هذا المنبر من اوله الى اخره دون ان يدخلوا فيه اي مادة من غير الخشب .

الا ان الاقدار الالهية ، شاءت ان تختار السلطان نور الدين الى جوارها في عليائها قبل ان يحقق امله المنشود فمات رحمه الله والمنبر ما يزال في طور الاعداد . فلما تولى ابنه السلطان الملك الصالح اسماعيل تابع ما كان ابوه قد بدأ به حتى اتمه نهائيا في ايامه اي حوالي سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) .

ولم يتمكن المسلمون من تحقيق رغبة ملكهم في وضع المنبر حيث اريد له ان يكون من المسجدالاقصى المبارك، لان بيت المقدس كانت حتى ذلك الحين ما تزال في ايدي الغاصبين من الصليبيين .

صلاح الدين يحقق امنية نور الدين

مات الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين وهو ما يزال بعد غلاما لم يبلغ الحلم ، فالتف المسلمون تحت راية صلاحالدين ابن اخت السلطان نورالدين ونادوا به قائدا وزعيما ، فنهض صلاح الدين بالامر كأحسن ما ينهض البطل اذا دوت بمسمعيه نداءات البطولة والفداء واصغى الى قول الشاعر الذي خاطب خاله نور الدين في قصيدة جاء فيهـا :

فانهض الىالمسجدالاقصى بذيلجب يوليك اقصىالمنى فالقدس مرتقب
واذن لموجك في تطهير ساحله فانما انت بحر لجه لجب

فرأى ان هذا الشاعر حينما خاطب خاله نور الدين انما كان يعنيه هو كذلك بهذا الخطاب . فتجهز لاتمام رسالة سلفه وتحقيق ما حالت المنية بين نور الدين وبين هدفه ، ولما ان كان اليوم السابع والعشرين من رجب الفرد سنة ٥٨٣ ، اذا ببيت المقدس تنفض عنها اعباء الاحتلال الصليبي وترفع راسها للمنقذ العظيم لكي يكلله بالوية الظفر المؤزر على انغام اناشيد المهللين والمكبرين من الابطال المسلمين والحجاج الموحدين.

وهنا نترك لابن الاثير ان يحدثنا عن يوم بيت المقدس الاغر المحجل بقوله :

« في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣ كبر المسلمون فرحا واعتزازا بنصر الله وتاييده ، اما الفرنج ، فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الارض تميد منها لعظمها وشدتها .. فلما ملك صلاح الدين بيت المقدس واستقر بها ، اقام في الرابع من شعبان صلاة الجمعة في المسجد الاقصى تحت قبة الصخرة المشرفة ومن حولها ، وكان الخطيب والامام محي الدين ابن الزكي قاضي دمشق ..

ثم تابع ابن الاثير قوله « ثم رتب فيه (أي في المسجد الاقصى المبارك) خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس ، وامر بان يعمل له منبر ، فقيل له ان نورالدين محمودا ، كان قد عمل بحلب منبرا ، أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال : « هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس » .. فامر صلاح الدين باحضاره ، فحمل من حلب ونصب بالقدس ، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة ... وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله .. »

وهكذا ، اخذ المنبر الشريف مكانه الذي اراده له نور الدين ولكن على يد ابن اخته وخليفته في زعامة العالم الاسلامي الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين بطل ملوك الاسلام والمسلمين السلطان العظيم صلاحالدين.

وان جميع الذين تعاقبوا على حكم بيت المقدس من ملوك المسلمين وامرائهم ، من ايام الايوبيين حتى اخر عهد العثمانيين حافظوا على هذا الاثر الرائع والتحفة النادرة الفريدة والمقدسة ، حافظوا عليها بالمهج والدماء وارخصوا في سبيل كرامتها النفس والنفيس وبذلوا في جوارها اغلى الوان الفداء ... حتى كانت ارادة الله فوقعت الطامة الكبرى وسقطت بيت المقدس يوم ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ ميلادية صريعة الذل

والهوان بيد القوات اليهودية اهل البغي والعدوان .. وما لبثت هذه القوات ان دست في المسجدالاقصى الذي باركالله حوله ، علجا اجنبيا في اليوم الثامن من شهر جمادى الاخرة سنة ١٣٨٩ (٢١ اب سنة ١٩٦٩ م) فرماه هذا العلج بشواظ من لهب النفط احرق منه المنبر الذي تركه السلف امانة غالية بيد الخلف فاصبح التراث الذي وقفه نور الدين ومن بعده صلاح الدين رمادا تذروه ريح الاحتلال اليهودي في مطاوي النسيان .. فوا اسفاه على مقدسات الاسلام والمسلمين وهي تتهاوى انقاضا تحت نيران اليهود الغاصبين فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وانا لله وانا اليه راجعون .

والفاجعة بالمنبر الشريف لم تنته بها المأساة ، ذلك ان الحريق الغشوم تطاول بالسنته الملتهبة الى المحراب الذي طهره صلاح الدين من الصليبيين وجدد بناءه بما يتفق وروعة المنبر الذي في جواره .. فما كان حظ المحراب من النار المحرقة خيرا من حظ جاره ، اذ تهاوت منه الحجارة التي حملتها كواهل المجاهدين وعطرتها انفاس المصلين من الابطال المرابطين واصبح ما فوقها من نقوش الايات الكريمة كالح الوجه حطيم الكتابة تحيط به اقسى انواع الكآبة ..

بذلك خسر المسلمون منبر نور الدين ومحراب صلاحالدين في ساعات معدودة في يوم بكت من شؤمه ملائكة السماء حزنا على محارم الله لدى اهل الارض . فهل ينتفض في المسلمين ميراثهم من عزائم اسلافهم الاولين فيثاروا لكرامة امتهم وعزة دينهم ويعيدوا الى رحاب الاقصى المبارك البهجة التي غابت عنه يوم اناخ عليه الاحتلال اليهودي بكلكله البغيض ؟ ...

ان ارواح الشهداء التي بذلها اهل الفداء من اجل الاقصى المبارك في مختلف عهود التاريخ الاسلامي تضج اليوم بنداء الثار فلعل المسلمين اليوم يصيخون لهذا النداء ويقيلون حرمات الله في بيت المقدس مما اصابها بالاحتلال اليهودي وينقذونها قبل ان تتطاول اليها ايدي الاعداء بالتدمير والتخريب فحينئذ لات ساعة مندم اذ لا ينفع يومئذ اي ندم .

فالبدار ايها المسلمون البدار ، واني لاكاد اسمع ابا المظفر الابيوردي وهو يرفع عقيرته من وراء الحجب والسنين بقصيدته التي قالها بين يدي ملك دمشق حينما تم للفرنج اخذ بيت المقدس .. اجل اني لاكاد اسمعه يقول وكانه يعنينا اليوم :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... ولم يبق منا عرضة للمراحم
وشر ملاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
اتهويمة في ظل امن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم (بالقدس) يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي او بطون القشاعم
تسومهم (الهود) الهوان وانتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد ابيحت ومن دمى ... تواري حياء حسنها بالمعاصم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم
يكاد لها المستجن بطيبة ... ينادي باعلى صوته يا لهاشم
ارى امتي لا يشرعون الى العدا ... رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
اترضى صناديد الاعارب بالاذى ... ويغضي على ذل كماة الاعاجم
فليتهم اذا لم يذودوا حمية ... عن الدين ، ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا فيالاجر اذ حمي الوغى ... فهلا اتوه رغبة في المغانم
لئن اذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلا عطسوا الا باجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة ... الينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها (الهود) عض الاباهم
فان انتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا الى اعدائنا بالجرائم ...

او اكاد اسمع قول الاخر وهو ينادي باعلى صوته :

احل الكفر بالاسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم حبيب
وكم من مسلم امسى سليبا ... ومسلمة لها حرم سليب
امور تاملهن طفل ... لطفل في عوارضه المشيب
اتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين اذن يطيب
اما لله والاسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ، ويحكم ، اجيبوا ..

فهل من سامع او مجيب ؟ ...

يمتشق الحسام انقاذا للاقصى المبارك بدلا من استدرار الدموع واطالة البكاء والنحيب ؟ ..

الكتابات الاثرية في المنبر

حفرت على جوانب المنبر الكتابات الاتية ، وهي مما امر بكتابته نور الدين محمود بن زنكي .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، امر بعمله العبد الفقير الى رحمته الذاكر لنعمته المجاهد في سبيله المرابط لاعداء دينه الملك العادل نورالدين ، ذكر الاسلام والمسلمين ، منصف المظلومين من الظالمين ابو القاسم محمود بن زنكي ابو سيف ، ناصر امير المؤمنين اعز الله انصاره وادام اقتداره واعلا مناره ونشر في الخافقين الويته واعلامه واعز اولياء دولته واذل كفار نعمته وفتح له وعلى يديه واقره بالنصر ، وارحمنا برحمتك يا رب العالمين سنة اربع وستين وخمسماية » .

وكتب على يمين الخطيب من ناحية المحراب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلوة وايتاء الزكوة » .

وكتب على يسار الخطيب من الجهة الغربية للمنبر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام الصلوة واتى الزكوة ولم يخش الا الله . فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين » .

وكتب على رقبة المنبر ، وهو من كتابة اسماعيل ابن نورالدين :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، عمل في ايام مولانا الملك العالم العادل الصالح اسماعيل بن محمود زنكي » .

وكتب على الدفة اليمنى من المنبر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، عمل في ايام مولانا الملك العالم ذي القربى ، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون . واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ، ان تكون امة هي اربى ، انما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة » .

الصناع الذين عملوا المنبر وكتاباتهم عليه :

ان الذين قاموا بصنع هذا المنبر الاثري كانوا من اهل حلب وقد تركوا فيه اسماءهم في الكتابة التالية ، وذلك في ستة سطور بعضها فوق بعض :

١ ـ صنعه سلمان بن معالي رحمه الله
٢ ـ عمل حميد بن ظافر رحمه الله .
٣ ـ عمل ابي الحسن بن يحيى رحمه الله .
٤ ـ صنعه حميد بن ظافر رحمه الله .
٥ ـ صنعه حميد بن ظافر الحلبي رحمه الله .
٦ ـ صنعه فضائل وابو الحسن ولدي يحيى الحلبي رحمه الله .

احزان في الغربة

★

ماذا انا ؟ لا شيء في عرف الزمان .. كأنني موج من النسيان
ماضي اصداء ، وفيض خواطري تجري به المأساة في وجداني
ففدي ، واحلامي ، وعطر عوالمي ، دوح من الاوهام ضم كياني
هذا الضباب، الخانق، المور في دربي الكئيب، يشف عن اشجاني
أأنا الغريب عن الحياة ؟ ام الحياة غريبة في عالمي الحيران ؟
يخطو معي هذا الغموض ، كأنه عبث الوجود بكل شيء فان

ادري، ولا ادري .. فكيف مسيرتي، والنور يغفو في دجى الكتمان
واظل من صمتي ، كدمع غمامة ، ارنو الى ما ثار من اضغاني
فأظل ابكي ، والخواطر تزدهي ، وتصيغ لي من نسجها اكفاني
اواه ، ما اشقى الحياة بليلها ، ان طال ليلي في الاسى اليقظان
فكآبتي .. همس الرباب اذا جرى في ظله المجروح صوت حنان
كم ذا أواري لوعتي ، فيهزني ان الحياة مليئة .. الاحزان

كل الزهور تفتحت لربيعها .. وانا وحيد، قد ذوت افناني

غرناطة ــ اسبانيا   منذر عطا العياشي

سنة تمام صنع المنبر

توفي السلطان الملك نور الدين قبل ان يتم صنع المنبر فتولى السلطان الملك الصالح اسماعيل بن محمود اتمام عمل ابيه وكتب على « زنار » المنبر الكلمات التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، تمامه في ايام ولده الملك العالم العادل الصالح اسماعيل بن محمود بن زنكي بن آق سنقر » وكان ذلك في سنة ٥٧٠ هجرية .

الكتابة على محراب صلاح الدين

ذكر المؤرخون ان الملك الناصر ، بطل الاسلام والمسلمين ، السلطان صلاح الدين الايوبي ، بعد ان ازال المعالم الاجنبية عن المسجد الاقصى المبارك ، امر رحمه الله ان يجدد فيه محرابه الذي غيره الفرنج وطمسوا هيئته الاسلامية .

فقام امهر البنائين بتجديد هذا المحراب وترميمه وكتبوا عليه الكلمات التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . امر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس . عبد الله ووليه يوسف بن ايوب ابو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين . عندما فتحه الله على يديه في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . وهو يسأل الله اذاعة شكر هذه النعمة واجزل حظه من المغفرة والرحمة » .

اما بعد ، فاننا نسأل الله عز وجل ان يديل للاسلام والمسلمين من اعدائهم اليهود واحلافهم من المستعمرين اهل البغي والظلم ، وان يمد عباده من أوليائه المؤمنين برجال بررة مخلصين ، يعودون بالمسجد الاقصى المبارك الى سيرته الاولى كما كان على عهد صلاح الدين من البهجة والرفعة والخلود والمنعة .. وما ذلك على الله بعزيز ..

طه الولي

عبدالحميد السائح - هذي كتب

الدكتور عبدالرحيم بدر

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ الشيخ عبد الحميد السائح

من الصفوة المختارة في العالم العربي بوعيه وسعة افقه وتقبله كل جديد نافع ، ومن الفئة التي تأثرت بتعاليم السيد جمال الدين الافغاني ، المصلح الاسلامي الشهير ، وبالامام الشيخ محمد عبده .

ولد الشيخ السائح في نابلس عام ١٩٠٧ وبعد ان أتم دراسته يمم القاهرة وانتسب للازهر الشريف وحصل على شهادة العالمية ثم شهادة التخصص من مدرسة القضاء الشرعي ، وعاد الى فلسطين ليؤدي رسالة الاصلاح اجتماعيا ، وليعالج امراضنا خلقيا ودينيا ، فنشر معالجات قيمة في الصحف والمجلات الفلسطينية واسهم في الحركة الوطنية وتوجيهها توجيها سليما ، ولو اخذ بآراء هذا الوطني المؤمن لما تردت الاوضاع في الوطن المغصوب ، ولما هام اهله في القفار والدروب !

وفي عهد الانتداب تولى في فلسطين المناصب التالية :

١ ـ استاذ العربية والدين في القسم الثانوي بكلية النجاح الوطنية في نابلس ،

٢ ـ قاض شرعي في نابلس ثم في القدس الشريف ،

٣ ـ سكرتير عام المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين ،

٤ ـ عضو محكمة الاستئناف الشرعية في فلسطين ،

وبعد وحدة ضفتي الاردن (١٩٥٠) عين رئيسا لمحكمة الاستئناف الشرعية وعضوا في مجلس الاوقاف والشؤون الاسلامية الاعلى ، وعضوا في مجلس كلية الشريعة بعمان وعضوا في مجلس اعمار المسجد الاقصى .

من آثاره القلمية :

١ ـ التضامن الاجتماعي في الاسلام (١٩٤١)

٢ ـ واجبنا نحو ناشئتنا (١٩٤٢)

٣ ـ مبادىء في الدين الاسلامي (٦ اجزاء) بالمشاركة مع لفيف من الاساتذة (١٩٤٥) .

٤ ـ نهج الاسلام (٤ اجزاء) بالمشاركة مع لفيف من الاساتذة (١٩٤٧) .

نموذج من نثره :

« ذكرى ١٧ رمضان هي ذكرى الروح المتأججة في العودة للاوطان ، بعد الهجرة والحرمان ، والحرص على متانة العقيدة وسلامة البنيان ، وحماية الحدود ، واقامة السدود ، في وجه الظلم والطغيان ، ومقاومة التشريد والتشتيت ، وصيانة الحريات من التلاعب والعبث بها ، وهي الاسلوب الذي اجدى قبل قرابة أربعة عشر قرنا ، وهو الاسلوب الذي لا يجدي غيره في القرن العشرين !

لقد انتهكت الحرمات ، ووقعت التعديات ، وصودرت الحريات في مكة ، وحال صناديد الظلم والطغيان وأركان الشرك والاوثان دون اطلاق العقول من قيودها ، وترك النفوس على سجيتها ، تعتقد ما تراه حقا ، وتدعو الى عقيدتها ومبادئها ، فهال ذلك عظماء قريش ، لانه يعني الحد من سلطانهم والقضاء على بغيهم وجبروتهم ، فقاوموا بشتى الوسائل وامعنوا في المقاومة ، من تعذيب الى تشريد ، ومن تقتيل الى تنكيل ، حتى حملوا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وصحبه المؤمنين على الهجرة من اوطانهم ، واللجوء الى المدينة ، ومع هذا فلم يتركوا تحرشهم ، ولم يدعوا عدوانهم ومقاومتهم للمؤمنين ، قصد القضاء على روح العزة ، وحملهم على الشعور بالتسليم لقوات البطش والجبروت ، ولكن الرسول الاعظم ، صلى الله عليه وسلم ، الذي ردد قول الله سبحانه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » قضى على احلامهم ، ووضع الخطة المحكمة للتخلص من شرهم ، فتمت غزوة بدر الكبرى ، التي انتصر فيها الحق على الباطل ، وكانت معجزة التاريخ العربي الاسلامي ، والتي خاطب فيها محمد ربه : « اللهم ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم في الارض ، وسنة الله سبحانه أن ينصر المؤمنين ، ويؤيد المخلصين اذا سلكوا طريق النجاة واخذوا بأسلوب القوة والعدة ، « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما اشبه العدوان والتحرش المباشر من الصهيونيين وغير المباشر ، ممن يؤيدون الصهيونيين ، من المستعمرين والظالمين ، في حدود فلسطين ، ما اشبه هذا بذاك ، وما اشبه هذه الاحتجاجات المتعددة من قبل العرب على عدوان تكرر باساليب اللين والموعظة التي كان يسلكها الرسول في مكة مع تحمل الاذى ، ولكن بعدما طفح كيل (محمد) صلى الله عليه وسلم ، وحينما شعر ان السكوت ليس الا استخذاء لقوات الظلم والباطل ، وليس الا قضاء أبديا على دعوته ، ولا يعني الا نحر العزة والكرامة له ولقومه ولدعوة الحق ، لم يجد الا سلوك السبيل المجدي ، وهو سبيل القوة التي تحمي الذمار ، وتدفع العار ، وتصون العقيدة ، وتضمد الجرح ، وتحفظ الحريات وتعيد الاوطان ، وتصد العدوان ، ولم

يمنعه من ذلك زيادة عددية في خصمه ، ولا قوة مادية في اعدائه ، لان الايمان اذا تمكن من صاحبه فعل اعاجيب ، وذلل الصعاب وكان له منطق لا يدركه الا المؤمنون ، سلك سبيل القوة فحطمت قوات المؤمنين المحقين ، قوات الظالمين والطاغين ، على وفرتها ورجحانها ، وقضت على غطرستهم ، وكانت هذه نقطة الانطلاق ، ومحور الاشراق ، وسبب القضاء النهائي على اساليب التلصص والاستهتار ، والعامل الاقوى في الفتح الاكبر والنصر المبين ! .

وما ادري هل تبعث هذه الذكرى في نفوسنا ان نسلك ذلك السبيل ، ونشعر نفس الشعور ، فنستعيد عزة مسلوبة ، ونضمد شرفا مكلوما ، ونحتل مكانا مرموقا ، ونرفع معنويات مهدمة ، ونخلق املا مشرقا ، بعدما ساء كيلنا ، وطفحت كأسنا ، وفسدت تقديراتنا ، واصبحنا بعيدين عن التصديق والايمان والاذعان ، الا اذا انتقلنا الى مرحلة عين اليقين ، وشاهدنا البرهان بالعين المجردة ، فحينئذ فقط نكون قد صدقنا وآمنا ، وانتعشت أرواحنا وآمالنا في اننا من نسل اولئك الغر الميامين ، نسير سيرهم ونقتدي بهم في بطولاتهم ، ونستفيد من ذكراهم ونعتبر من حوادثهم ، ولا تيأسوا من روح الله ، فانه لا ييأس من روحه الا القوم الكافرون ، فمن يكون (محمدي) هذا العصر في روحه وايمانه ؟ ومن يكون (بدري) هذا الزمان في بطولته وافعاله ؟! » .

٢ ــ هنري كتن

الشعار الذي آمن به هنري كتن منذ صدر شبابه ، وراح يجاهر به قول ارسطو : « اذا اختلف الحق والحي ... فانا اكون الى جانب الحق ! » .

في بيت المقدس مدينة الطهر والقداسة ولد هنري كتن في ٢٦ شباط ١٩٠٦ وبعد ان أتم دراسته الثانوية في كلية الفرير نال دبلوما في الصحافة من جامعة لندن سنة ١٩٢٦ ثم شهادة ليسانس الحقوق من جامعة باريس سنة ١٩٢٩ وفي سنة ١٩٣٢ اجتاز امتحان الماجستير في الحقوق من جامعة لندن فأذن له بالانضمام الى عضوية نقابة المحامين البريطانية والمرافعة امام المحاكم البريطانية، ولما عاد الى القدس سنة ١٩٣٢ انضم الى عضوية نقابة المحامين الفلسطينية وعين استاذا محاضرا في قانون العقوبات بمعهد الحقوق الفلسطيني وبين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٨ انتخب عضوا في مجلس الحقوق الفلسطيني واشتهر كنابغة من نوابغ رجال الفقه والقانون الذين انجبتهم فلسطين .

وبعد تأزم قضية فلسطين ، وعرفت طريقها الى محافل الامم المتحدة ، اختار الشعب الفلسطيني هنري كتن لكي يترافع عن قضية بلاده في دورة عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ نظرا لسعة استيعابه للقضية وبلاغته في اللغتين الافرنسية والانكليزية فضلا عن العربية ، واعتياده مواقف الدفاع كمحام نابه بليغ .

وبحلول كارثة فلسطين في سنة ١٩٤٨ انتقل الى دمشق ، حيث اذن له بالانضمام الى عضوية نقابة المحامين السورية في سنة ١٩٤٩ وبمزاولة المحاماة هناك ، وهي المهنة التي مارسها منذ سنة ١٩٣٢ وما زال يمارسها حتى بعد ان استقر به المطاف في بيروت .

وبفضل تضلعه من فقه القانون ، فانه كثيرا ما يستعان به في القضايا المعروضة على التحكيم الدولي والقضايا المختلف عليها بين الشركات الكبرى والحكومات حول الامتيازات والتعاقدات . وقد اقتضاه هذا أن يكون دائم السفر حتى طاف بمعظم بلاد العالم ، وكان حيثما حل، نموذجا مشرفا للمواطن الفلسطيني علما وذكاء وخلقا وتوقد خاطر ، هذا بالاضافة الى تواضعه وامانته التي ينزلها من نفسه منزلة القداسة .

وعندما زار الكاتب الفرنسي جان بول سارتر مصر قبل نكبة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، نظمت له برامج ورحلات لكي يطلع بنفسه على الجوانب المختلفة للقضية الفلسطينية ، فوقع اختيار المسؤولين على هنري كتن ليكون من الفاقهين الذين يبسطون لسارتر ابعاد القضية وجوانبها القانونية والسياسية والانسانية ، وقد صحبه الى غزة طوال زيارته لما تبقى من اشلاء فلسطين .

من آثاره القلمية ــ وقف الاستاذ كتن مؤلفاته على ميداني تخصصه وهما : القضية الفلسطينية والقانون ، وفي قضية العروبة الاولى اصدر طائفة من الكتب باللغتين الانكليزية والفرنسية وعرض فيها القضية الفلسطينية عرضا منطقيا يتسم بالعمق واصالة الراي وقد عرفنا منها :

١ ــ PALESTINE PROBLEM

٢ ــ TO Whome Palestine Belongs ?

٣ ــ ابعاد القضية الفلسطينية (بالانكليزية والفرنسية) ١٩٦٧ .

٤ ــ The Evolution of Oil Concessions in the Middle East and North Africa.

« تطور امتيازات الزيت في الشرق الاوسط وشمال افريقية » ــ صدر عن دار « اوشيانا » في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٧ .

٥ ــ The Law of Oil Concessions in the Middle East and North Africa.

« قانون امتيازات الزيت في الشرق الاوسط وشمال افريقية » ــ صدر عن دار « اوشيانا » في الولايات المتحدة سنة ١٩٦٧ .

٦ ــ Palestine, the Arabs and Israel

صدر هذا الكتاب عن دار لونجمانز في لندن ويعتبره الساسة ورجال الفكر من انفس الكتب التي عالجت القضية الفلسطينية . وفي سنة ١٩٦٩ نقل هذا الكتاب

الضخم الى العربية الكاتب العربي الكبير الاستاذ وديع فلسطين وخرج من المطبعة العربية تحت عنوان « قضية فلسطين في ضوء الحق والعدل » .

وانه لمما يدعو الى اعتزاز ابناء فلسطين مواطنا مثاليا كبيرا كهنري كتن جوابا بين حلبات المحاماة الدولية الكبرى في قضايا يشارك فيها دهاقنة القانون الدولي كاللورد مكنير والعلامة آجو والعلامة بوركان والدكتور جورج راي والدكتور لويل وادموند وغيرهم من شوامخ فقه القانون العرب كالدكتور سابا حبشي والدكتور حامد سلطان والدكتور حلمي بهجت بدوي ومحمود حسن باشا واخوان هذا الطراز الرفيع . كما ان من المألوف ان يشارك هنري كتن في مؤتمرات القانون الدولي كالمؤتمر الذي عقد في دالاس بولاية تكساس الاميركية في شهر حزيران (يونيو) ١٩٦٩ .

واذا كان جورج انطونيوس بكتابه النفيس « يقظة العرب » قد خدم العروبة خدمة على نطاق عالمي المنتمى ، واذا كان الدكتور فيليب حتي بكتبه العظيمة عن تاريخ العرب وتاريخ لبنان وسورية والتاريخ الاسلامي قد اسدى أيادي عظمى للامة العربية قاطبة بين شعوب العالم الاعجمية فان « هنري كتن » بكتابه الاخير عن « قضية فلسطين » قد انتمى الى هذا الطراز العالي من عترة المؤلفين الاعاظم الذين خاطبوا الشعوب الانكليزية والاميركية والفرنسية بلغاتهم واحسنوا الخطاب . وحبذا لو أن جامعة الدول العربية ، بمكاتبها في روما والولايات المتحدة والبرازيل والارجنتين تترجم هذا الكتاب القيم الى الايطالية والاسبانية والبرتغالية ، فيغني عن كثير من الثرثرات والنشرات الدعائية .

٣ ـ الدكتور عبدالرحيم بدر

الحكمة التي اعتنقها « عبد الرحيم » منذ كان يافعا ، واتخذها شعارا ، وظل ينادي بها سرا وعلنا : « ان العلم للنفس الانسانية كمال تتحلى بفضائله ، وهو نور العقل وسراج القلب ! » .

ولد « عبد الرحيم » في مدينة الخليل بفلسطين عام ١٩٢٠ وانهى دراسته الابتدائية في بئر السبع وغزه حيث كان والده موظفا في حكومة الانتداب ، والتحق بالكلية العربية في بيت المقدس وحصل على شهادة « المترك » الفلسطيني عام ١٩٣٧ ونشر مقالات في جريدة « المنار » المقدسية على شكل يوميات كانت تنشر يوم الاثنين من كل اسبوع ، وكانت هذه الخواطر مزيجا من العلم والادب . كما نشر مقالات علمية وادبية في مجلات « الافق الجديد » و « رسالة المعلم » و « رسالة الاردن » و « العلوم » و « المجلة » و «العربي» و « حماة الوطن » و «البيان» .

وبعد التحاقه بكلية الطب في جامعة القاهرة تخرج طبيبا عام ١٩٤٥ وعاد الى فلسطين وعمل طبيبا في حكومة الانتداب . وفي عام ١٩٤٨ ، عام النكبة الاولى ، لجأ الى مدينة اريحا وزاول الطب في عيادة خاصة .

وفي عام ١٩٥١ بدأ الدكتور «بدر» خطا جديدا في حياته السياسية اذ ظل يتنقل بين المعتقلات والسجون مدة ٥٥ شهرا ، وفي هذه الاثناء عكف على درس الفلك والعلوم الفيزيائية ، واتاح له وجوده في معتقل الجفر ترجمة وتصنيف بعض الكتب العلمية والروايات الاجتماعية .

وفي عام ١٩٦٠ نحت الدكتور عبدالرحيم بيده (تلسكوبا) من قياس ٦ بوصات ، وبواسطته انشأ مرصدا فلكيا وراسل بعض الجمعيات الاوروبية حول انجازاته العلمية ، ونشرت تقاريره الفلكية في المجلات التي تصدرها تلك الجمعيات الفلكية الاوروبية .

والدكتور « بدر » يتمم بعلمه سلسلة علمائنا الافذاذ امثال شبلي الشميل ويعقوب صروف وفارس نمر واحمد زكي واسماعيل مظهر ، وفي الموضوعات التي يعالجها بقلمه تلحظ طريقة التبسيط والشرح .

وفي عام ١٩٦٧ قرر وزير التربية والتعليم الاردني تعيينه عضوا في اللجنة الاردنية للتعريب والنشر ، لكن انتقاله للكويت وعمله طبيبا في وزارة الصحة حرم اللجنة جهد عالم موهوب عشق العلم فسلك دروبه ، ونقل للقارىء العربي اخر ما ابدعه العقل الاوروبي من اكتشافات علمية ونظريات فلكية .

من آثاره القلمية : بالرغم من جنوح الدكتور بدر للادب فهو مفكر موهوب يميل الى العلم ونظرياته ويقبل في مطالعاته على الكتب الاوروبية ذات الطابع العلمي ، ودونك اسماء ما وقفنا عليه من آثار قلمه :

١ ـ الكون الاحدب ـ طبع عام ١٩٦٢ وتناول الكاتب فيه النظرية النسبية .

٢ ـ بدائع السماء ـ (مترجم) طبع عام ١٩٦٦ .

٣ ـ النفوس الميتة ـ رواية ترجمها عن الانكليزية ، وهي في الاصل للكاتب الروسي نيكولاي جوجول الذي جعل من روايته هذه سياطا تدبغ النفوس المريضة .

نموذج من نثره : وكما عالج الدكتور بدر الموضوعات العلمية والادبية بريشة فنه ، عالج القصة كذلك وبرهن على ان في وسعه ان يكون عالما وطبيبا ، وقاصا وأديبا ، ودونك قطعة من قصة بقلمه عنوانها « الجذور » :

كان للباب صرير مزعج كعادة الابواب التي صنعت من صفائح مختلفة في الشكل واللون ، ومقدار ما علاها من صدأ ، وعدد ما فيها من ثقوب ، ولهذا كانت تغلقه بتؤدة وبطء ، وتسير في الطريق الذي اعتادت السير فيه منذ امد بعيد بعيد جدا ، كل يوم مع مطلع الشمس . وما تكاد تقفل الباب حتى ترى انها قد انتهت من تلاوة الدعاء الذي كانت تتمتم به منذ ان فرغت من الصلاة . فتجد عندئذ فراغا فكريا فتنصرف الى خيالاتها وتأخذ تعيش في الماضي . ولم يكن في الطريق شيء يصرفها عن ذلك ، فهي تعرفه خطوة خطوة ، وتكاد تفتقد الحجر اذا تحرك من موضعه . والمارة من الناس في هذه الساعة من الصباح قليلون . ولكنها اخذت في الاسابيع الثلاثة الاخيرة تحس بأن الابريق الفخاري المملوء بالماء الذي

تحمله في يدها اليمنى ، ثقيل . وكان نقله الى اليد اليسرى اول الامر يستحوذ على قسم كبير من تفكيرها ، فيصرفها بعض الصرف عن خيالاتها الواسعة ، غير انها فيما بعد اخذت تنقله دون تفكير ، اكثر من مرة . كانت تدرك ان هذا دليل الهرم واذان الشيخوخة ، ولكنها سرعان ما تهرب من هذه الفكرة البغيضة لتعيش في عالم شبابها وعزها وعنفوانها .

لم تكن المقبرة بعيدة عن المخيم ، ولكنها في طرفه على اية حال ، وقطع هذه المسافة لامرأة عجوز يستغرق وقتا غير قصير ، وقتا كافيا لاستعادة غير قليل من الماضي السعيد .

فأبو الحارث رجل جدير بأن تزور قبره كل يوم . لم يكن شيئا كثيرا بالنسبة للقرية كلها . انها لا تذكر شخصا مثله يحترمه الناس ويستمعون الى رأيه ويسعون الى مشورته . وكان المترددون على البيت لا يكادون يتركونه ليلة واحدة يجلس معها ومع الاولاد . كانوا يزعجونها اذا ما جاءوا يطلبونه الى المضافة لحل المشاكل . وعندما يعود كانت البهجة تبدو على محياه ، فيخبرها بأن الخصام بين فلان وفلان قد انفض والحمد لله . وعندما سافر الى بيت الله الحرام وادى فريضة الحج وغاب شهرين طويلين عنها وعن القرية كلها ، حدثت حادثة قتل ، وقالت لها ام احمد ان الحادثة ما كانت لتقع لولا غياب « ابو الحارث » !

كان يملأعليها البيت بهيبته ورجولته وجلال قدره . لم يكونوا في تلك الايام بحاجة الى (بطاقة) المؤن او الى اي انسان . بل ان الله سبحانه وتعالى كان رؤوفا به فاختاره الى جواره قبل ان يعرف هذه اللعنة التي يسمونها (بطاقة) المؤن . فبستان البرتقال كاف يعيشون من ريعه في عيش رغيد . كانت تنهض في الصباح الباكر مع الفجر فتعد الفطور وتوقظ الاولاد الاربعة واباهم ، فيتناولون كأس الشاي مع قطعة الخبز الذي كان آنذاك من القمح الخالص ، ويحمل الرجال منهم ـ الاب وحارث وراوي ـ الفؤوس والمجارف . اما البنات ـ زهرة وغصون ـ فتحملان السلال وينطلق الجميع الى العمل في اشجار البرتقال ، اما هي فكانت تمكث في البيت لاعداد الطعام للوجبة التالية . وكان يظهر لها من العطف ما لا تستطيع ان تنساه . فقد حاولت ذات يوم ان تساعد ابنتيها في نقل السماد ، ولكن ابا الحارث اقسم بالله ان لا تفعل ذلك ، لا في ذلك اليوم ولا فيما يلي من الايام . كانت تشعر انه ليس زوجا وحسب ، بل الاب الحنون والام الرؤوم والمعلم المخلص المتفاني . كان اذا جلس اليهم في المساء ـ وقل ان تطول جلسته ـ يحدثهم باحاديثه الشهية ، ويناديهم « يا اولاد » وهي تعرف انه يشملها بهذا النداء . وكان صوته الجهوري الرصين اجمل واعذب ما يطرق السمع ، فهو على خشونته يفيض بالحنان .

كانت غصون في العاشرة من عمرها عندما كانوا يجلسون كلهم تحت شجرة برتقال فمدت اناملها الطرية اللينة وقطعت زهرة من زهوره المتفتحة آنذاك . واذا بالرجل ينطلق بحديث طويل عن قيمة البرتقال وزهر البرتقال ، وعرف من لم يكن يعرف انهم مرتبطون بهذه الشجرة وزهرها وثمرها ، وان الزهرة ثمرة في اول الطريق ، وانهم يأكلون ويشربون بفضل هذه الزهرة او هذه الثمرة ، وان الواجب عليهم هو الحرص والعناية بكل ورقة وكل ثمرة . وفي تلك الاونة ، انما في مناسبة اخرى ، عرفت انه تزوجها لان اسمها « خضرة » بلون الشجر ، وسمى ابنهما الكبير « الحارث » وهو يقصد حراثة الارض ، وكانت تظن قبل ذلك انه « حارس » ، وسمى ابنهما الثاني « راوي » لكي لا ينسى ري البستان وسقياه ، اما البنتان فسمى احداهما « غصون » والاخرى « زهرة » . كان يدخل في اذهانهم انهم من الاشجار وان علاقتهم بها اكثر مما يظنون . وكان يندفع في شتى المناسبات في احاديث طويلة مختلفة عن هذا الموضوع باسلوب منسجم لا تستطيع استعادته الان . ولكنهم جميعا كانوا يفهمون ما يريد ان يقول . لم يكن يكتفي بهذه التشبيهات بينهم وبين الاشجار ، بل كان يقول لهم ان لهم جذورا كالاشجار ، لا تمتد الى باطن الارض فقط بل تمتد الى الاباء والاجداد والى أهل القرية والمعارف والاصدقاء . وكان يقول ايضا ان الانسان اذا اقتلع من جذوره يذوي ويموت كالشجرة تماما .

وبعد ان قتل اليهود ابنيه الحارث وراويا هناك ، في المعركة التي نشبت عند مفترق الطرق ، غير بعيد عن المستعمرة وغير بعيد عن القرية ايضا ، وبعد ان قتلت غصون في المعركة الاخرى التي هاجم فيها اليهود القرية ، وكانت تحمل الماء للمناضلين ، بعد هذا كله اضطر ابو الحارث ان يترك السلاح ، لا لان عزيمته قد خارت ، فهذا امر لا يرد لمخلوق في حسبان ، وانما لان الجسم الذي يحمل تلك العزيمة خار وتهاوى .

احساس غريب كان يطبق على صدره ، ويسري الى لوحة الكتف الايسر ثم يشده مما تحت الترقوة فيحسب ان عذاب الدنيا والاخرة قد تجمع مرة واحدة ليسكن بين اضلاعه ويحط في صدره عصا الترحال . كان يحاول ان ينهض من فراشه لمتابعة الجهاد الذي اقعد عنه ، ولكن عذاب السعير يلتهم ما تبقى له من عزم . وعندما رحلت القرية ، وحمله النازحون فيما حملوا من متاع ، وأرادوا ان يضعوه في سيارة الشحن ، على الرغم من عناده الهش الكسير الجناح ، كان يصيح بصوت لا يزال فيه بعض الوضوح ، وينادي نداء غريبا ويقول « جذوري جذوري ! » .

عمان ـ الاردن

البدوي الملثم



ميشال الجاهل

الشاعر ميشال الجاهل الذي فقدناه

بقلم جوزيف نعمة

* * *

في ٢٦ آب المنقضي مات الشاعر ميشال الجاهل في دير القمر . والفقيد من مواليد ١٨٩٥ وتؤلف اسرته مع آل الخازن والعازار (الكوره) عشيرة واحدة تنتسب كما اكد بعض المؤرخين ، الى بني حسان في نواحي الحجاز .

بدأ ميشال حياته شاعرا رقيقا طالما سمعنا قصائده في الافراح ، والاتراح والمناسبات الاجتماعية والوطنية ، وحفظنا الكثير من اشعاره عن ظهر القلب لعذوبتها وطلاوتها . كان العندليب الشادي على الاغصان ولم يقل انشاده الا يوم دخل الوظيفة واضطلع باعبائها فاصبح على التمادي مديرا للقضايا الادارية في وزارة العدل ، وانتهى من الخدمة محافظا لمنطقة جنوب لبنان .

من النادر ان تتفق الوظيفة والشعر . فهي تتطلب الكبت والانقباض ، وحد المشاعر ، والتقيد بالقوالب الرسمية والانصهار في بوتقة السياسة ، والشعر يأبى ذلك ، وينشد الانطلاق ، والخيال ، والانفلات من الحدود والوقوف وراء الاسوار . ولهذا صمت العندليب كما قلنا ولم يعد يسمع ابناء الجيل اناشيده وقصائده الا لماما . فنساه الناس شاعرا او كادوا وعرفوه موظفا ومتقاعدا .

تحديد ميشال الجاهل : اديب وشاعر وموظف امين . و اذا كان لكل امرىء من اسمه نصيب فميشال لا يمت بشيء الى اسمه بل ينتسب الى صفاته الطيبة ودماثة اخلاقه وصفاء سريرته كما عرفه كل من قربه وخبره عن كثب .

تتلمذ اول ما تتلمذ باللغة العربية على يد المعلم نعوم افرام البستاني صاحب جريدة دير القمر المحتجبة ، والمربي الكبير الذي يحصي بين تلاميذه القدماء جمهرة من اعلام الادب كفؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية ، وكرم ملحم كرم ، صاحب الف ليلة وليلة وغيرها من المؤلفات العديدة ، وسواهما من الرجال الذين لمعوا في دنيا الادب وكانوا من مشاهير حملة الاقلام .

ففي اثناء الحرب العالمية الاولى كانت في دير القمر مدرسة رسمية اعتاد المشرفون عليها ان يقيموا من وقت الى آخر على مسرحها محافل ادبية يتبارى فيها شعراء الدير وادباؤها في شتى المواضيع . ولا يزال عالقا في الذاكرة من مساجلات بعض الادباء مثل حنين متى ، وجوزيف ابو خير ، ونعوم افرام البستاني وميشال الجاهل مقاطع تلاعبوا فيها بالالفاظ ، والالغاز والاحاجي .

قال حنين متى مخاطبا الجاهل ملمحا الى اسمه :

يا خليلي قالوا عنك جاهلا … قلت هذا محض كذب وافتراء
كيف يدعى جاهلا من قد غدا … بحر علم ، وهو خير الشعراء

اجاب الجاهل :

حن الفؤاد الى (الحنين) حنينا … مذ قام ينظم شعره المكنونا
متلاعبا باسمي كلعب قريضه … بالعقل لما قد غدا مفتونا

وتدخل نعوم البستاني في نهاية الحلقة فقال :

محفل العلم وقسطاس الادب … قد اعدت اليوم امجاد العرب
امة قد طبعت اثارها … في جبين الدهر سطرا من ذهب
لا تقولوا انها خاملة … فهي منذ البدء في اعلى الرتب
واعادوا مجدها في مسرح … خطب العالم فيها ما خطب

وللجاهل من بواكير شعره قصائد نشرت له في بعض الجرائد ومنها جريدة (المعرض) في اولى سنواتها وهي تنبض بالحب والغزل والوصف الرقيق . غير ان هذا الشاعر كبا في حبه لفتاة احلامه التي خفرت ذمامه وتبعت سواه من ذوي الثراء فانبرى معاتبا ولائما وناصحا بقصيدة رقيقة اشتهرت به واشتهر بها . وهذه بعض ابياتها :

انكرت عهدي وما حفظت ذمامي … لك غير قلبي فاذهبي بسلام
اني غفرت لك الذنوب جميعها … هلا غفرت صبابتي وغرامي ؟

الى ان يقول :

فرايت هذا الناس بين تحاسد … وتباغض وتقاتل وصدام
حكم القوي على الضعيف مقدس … ولو استبد وجار بالاحكام
وكم امتطى ظهر الشعوب مسلط … فمشى بها للذبح كالاغنام

تذكار «يستا»

يمر بي وجه ((يستا))
أشرعة في الزمان
اراه مذ صورا
وأتعب المصدرا
من كل شيء كان

أعيش في حروف يستا
يغيب عن مقلتي كل شاطيء
تكاد اغنية المرافيء
تحرق شوق انتظاري
على مرايا غباري
يطير بي هدب ((يستا))
في بحر جمر بلا عنان

أشم في عطره الوجودا
أسبح في مقلتي وأذني
حتى اذا غيب الحدودا
عانقت منه الصدى ومني

علي شلق

الصائدون الغيد في اخدارها   مثل الذئاب فتكسن بالاغنام
والداخلون الخدر في شهواتهم   كالدائسين الزهر بالاقدام
يا هند علمني الهوى امثولة   شتى الغموض كثيرة الابهام
فبسطتها لك بالحديث صريحة   وانرت عقلك فاذهبي بسلام

الى الشيخ بشاره : وكما كان الجاهل يتغنى بالحسان ويخصهن بالقصائد اللطيفة ، فانه كان وطنيا غيورا وله في المواقف الوطنية قصائد عصماء . قال في بداية الاستقلال (١٩٤٣) مخاطبا الشيخ بشارة الخوري، رئيس الجمهورية الاسبق :

لبنان بين يديك في استقلاله   يزهو على التاريخ في اجياله
والعهد في يمناك اصدق ما حوى   لبنان في ماضيه واستقباله
عهد تميز بالصراع ودونه   هول الجهاد اشد من اهواله
شعب تسلح بالحقوق واخر   متسلح بحديده ونصاله
قل للالى عرفوا الطغاة ونيرهم   وقساوة الغازي ووطء نعاله
لا تبخسوا الامم الصغيرة حقها   ((فالحق منصور على خذاله))

الجاهل وحافظ ابراهيم : وللجاهل عدة قصائد غرامية وادبية ووطنية واجتماعية لم تجمع بعد في كتاب واحد ، وبعضها يعرفه اصدقاؤه عن ظهر قلوبهم لطلاوته. وقد صار له اسم كبير في عالم الشعر عندما نظم قصيدة حافظ ابراهيم يوم زار لبنان مستجما وقد القاها في ندوة الجامعة الاميركية ببيروت . وهذه بعض ابياتها :

حيا بكور الحيا ارباع لبنان   وطالع اليمن من بالشام حياني
اهل الشام لقد طوقتم عنقي   بمنة خرجت عن طوق تبياني
يا وقفة في جبال الارز انشدها   بين الصنوبر والشربين والبان
تستهبط الوحي نفسي من سماوتها   وينثني ملكا في الشعر شيطاني
علي اجاودكم في القول مقتديا   بشاعر الارز في صنع واتقان
لي موطن في ربوع النيل اعظمه   ولي هنا في حماكم موطن ثاني
حسبت نفسي نزيلا بينكم فاذا   اهلي وصحبي واحبابي واخواني

فكان جواب الجاهل :

ردي التحية يا ارباع لبنان   ورجعي من ذرى صنين تحناني
ردي التحية من نبع الصفا شبما   بين الرياحين يجري جرى ثعبان
ردي التحية من عالي الذرى ارجا   من الصنوبر والشربين والبان
ردي السلام من الشالوط(١) منفجرا   بين الجلاميد يروى كل ظمآن
ردي السلام هواء منعشا صردا   يدب بين ضلوع المدنف العاني
لهي على الارز كم مدت اليه يد   امضى واصلب من ايدي سليمان
قد هدم الارز حتى شاد هيكله   في القدس يا ويح ذاك الهادم الباني
كم من سليمان جاء الارز مقتطفا   كانما الارز شلو بين ذؤبان

الى ان يقول :

في الشوف في المتن انى سرت متنقلا   تلق منازه انهار وغدران
والطرق في الارز بالاسفلت قد فرشت   تحنو عليها من الادواح صفان
والحور والدلب والصفصاف منحنيا   عند الغدير انحناء العاشق العاني
تخال جنات عدن في جنائنه   وشهر تموز فيه شهر نيسان
لبنان للنيل جار صان جيرته   وحبذا النيل من جار للبنان
فانزل بلبنان مصطافا على سعة   فمن احق بداري غير جيراني ؟

والجاهل محبوب في بلدته ، قريب الى قلب كل مواطن من مواطنيه . ولهذا اقاموه رئيسا لجمعيتهم الخيرية (سيدة التلة) ومركزها بيروت ، فما زال في مركزه هذا منذ ربع قرن تقريبا . ولطالما تغنى بامجاد مسقط رأسه ، وفاخر به شعرا في المناسبات المختلفة . وهذه بعض ابيات من قصيدة القاها في المهرجان الادبي الذي اقيم في سراي الشهابيين بدير القمر يوم الاحد ٧ آب سنة ١٩٤٩ لمناسبة عيد شفيعة البلدة :

احدوثة التاريخ ملء سطوره   آيات مجد كلما وصفوك
لبنان بين قديمه وحديثه   متجمع فخرا ومجدا فيك
ماذا اقول ومن رجالك ثلة   كالعقد نظم لآلى وسلوك
حملوا لواء المجد في ايامهم   ومشوا على الايام ذات حلوك
نحتوا من الصخر الاصم ربوعهم   الله يلطف بالالى نحتوك
ومن الشباب اهلة وضاة   ترجى ليوم خير مبروك
ومن الشباب مثقف ومدرب   صلب العقيدة في سمات ملوك
ومن الشيوخ اماجد عركوا النهى   وتشبثوا بلوائك المسموك
ومن الاساتذة الجهابذ انجم   لماعة بضيائها تهديك
ومن الاطباء النوابغ معشر   ملء الزمان بطبهم آسوك
ومن الجنود سواعد مفتولة   خلقت ليوم وقيعة وفتوك
في الشرع في التاريخ اعلام على   هام المجرة عنوة رفعوك

هذا وقد اقيم للفقيد مأتم حافل في مسقط رأسه ومنحته الحكومة وسام الارز الوطني من رتبة كومندور اكراما لذكراه بعد الوفاة . رحمه الله .

جوزيف نعمة

---

(١) نبع في دير القمر .

قصة

عزة

بقلم حسني سيد لبيب

لقد أعد كل شـيء لحفـل الزفاف . لم يتبق سوى اسبوع واحد وانتهي من الرحلـة العريضة . كم كانت شاقة ومضنية ! . لقد كلفتني الكثير من المـال والجهـد ، لكني وطدت العزم على ان افعل كل شـيء من اجلها . منذ عامين كان اول لقاء بيننا ، حيث قطنت اسرتها وقتذاك في الطابق العلوي من منزلنـا . طالعني وجهها النوراني ، وخلبتني بحيويتها وانوثتها الفاتنة . وطدت صلتي بأبيها واخيها ، وتعمدت ان اختلي بها واتجاذب معها اطراف الحديث . في كل لقاء يجيء أحس بأني قد احببتها اكثر ، واجد نفسي مدفوعا اليها ، حتى باتت عواطفي شيئا لا يمكن اخفاؤه او صونه في طوايا النفس . بحت لها بما يكنه فؤادي ، لكنها لم تعرني أذنا صاغية ، فعزوت ذلك الى طبيعة المراة التي تجتذب الرجال لكنها لا تصدهم ولا تبوح لهم بأحاسيسها . بعد تفكير قاس وقلق حائر ، تحدثت مع أبيها واعلنت له رغبتي في الزواج منها ، وخطت الامور خطوات متثاقلة نحو الغاية التي تشبثت بها كطفل يصر على شيء يمتلكه ، ويثير المنازعات من اجل الاحتفاظ به .

استغرقت الرحلة عامين كاملين ، دار فيها الحديث حول المهر والاثاث والبحث عن شقة ، وقد اعتبرت كل هذا امورا طبيعية يجب ان اجتازها. ذللت كل عقبة يختلقها ابوها ، كما اقنعت اسرتي بضرورة زواجي منها . وافقت أمي على الزواج وباركته ، بينما وقف ابي موقفا متحفظا واخذ ينصحني بألا انساق وراء عواطفي ، فهي وحدها لا تكفي لبناء حياة زوجية مستقرة .

ان الحياة بلا امل تعني الموت او ما هو اقسى منه . لا ادري اين طالعت هذه الكلمات ، لكني أعيها الان . ففي خلال رحلة العامين الطويلين احسست بأني احيا حقا من أجل هدف ما ؛ واحسست بطعم حلو للحياة . ان زواجي من عزة هو الامر الحيوي الذي يجب ان اوليه كل اهتمامي. ان الحياة تغيرت في ناظري وبت أرى الامور رؤية جديدة واحسست بأن الحياة تفتح لي نافذتها المشرقة . حقا ان الحياة بلا امل هي اقرب الى الموت ان لم تكن أقسى منه .

وكم فرحت لنجاحي في ارضاء نوازعها . شاركتها آمالها واهتممت بها اهتماما لاحظته ونوهت به :

ـ لا املك الا ان احبك ، فانت مهتم بي لدرجة لا اتصورها . تنسى نفسك وتنظر لي نظرة لا افهمها وادرى معناها . احسست يا عادل انك مهتم بي كأني نفسك . واذا احسست امرأة باحساس كهذا نحو رجل ، فلا تملك الا ان تحبه .

خفق قلبي لكلماتها الحلوة . اقترب يوم الزفاف ، ذلك اليوم الذي ترقبته طويلا ، الا ان الايام القليلة الباقية تتثاقل وكأنها تتدلل وتستثير شوقنا وتزيد من خفقات قلبينا .

مرض ابوها فجأة . دعوت الله الا يتثاقل عليه المرض ، فيوم زفافي يقترب .. الا ان ما ترغبه النفس لم يتحقق ، فالمرض تزيد وطأته والرجل يقترب من نهايته . اكثرت من زيارته . وكان يتصادف ان أقضي معه النهار كله . اخذت ادعو الله دعوات صادقة ليمن عليه بالشفاء ، لكن مضاعفات المرض جعلت امل الشفاء معجزة لن تتحقق .

ان الاستعداد للزفاف صار استعدادا للموت ! .. هذا الزائر الثقيل لا يأتي في الوقت المناسب ، يضجر اهل البيت ويكلفهم اعباء نفسية ليسوا متأهبين لها . يا للحياة ! .. او يا للموت ! .. لقد تحولت الصورة المشرقة السعيدة فجأة الى اخرى قاتمة حزينة .. ولك ان تعجب للحياة او للموت فلا فرق بينهما ، فللحياة مفارقاتها ، وللموت مفارقاته .. وكم هي قريبة تلك المسافة بين الحياة والموت ، او هي مسافة وهمية لا وجود لها . احساس بفيض يأكل مشاعري ويلهب اعصابي ، احسست الان فقط بأن الحياة والموت توأمان .

لا حديث للاسرة الا عن الموت ، زائر يترقبونه ويتأكدون من قدومه . الموت يفرش ظله الكئيب في كل ركن ، ويلون المرئيات بالسواد . ملامح وجه عزة اظلتها ظلال كئيبة ، وباتت تفوه بكلمات متقطعة لا يربطها رابط ، وكأنها تعبير عن تمزق داخلي تعاني منه وتتوجع .

الزائر الثقيل لم يجعلنا ننتظر طويلا ، فذات صباح تمزق البيت بالصراخ والعويل . نهضت مذعورا من نومي فأحسست بانقباض هائل في صدري . ان نذر الشؤم تتبدى لي وانا استقبل حياتي الجديدة . صراخ عزة يمزق اعصابي ويحطمني. لكم انت رهيب ايها الموت ! .. لست أخافك ، ولا يمكن ان اخاف ، لكن فراق الانسان للانسان صعب ومرير . علينا اذن ان نخطو خطواتنا في الحياة بحذر ، والا تخفق أفئدتنا حبا للحياة وعشقا لمغرياتها ، فأنت قريب منا دائما تعلن عن نفسك وتؤكد لنا انك الحقيقة الازلية التي

لا يمكن لاحد ان ينكرها .

مشيت في الجنازة بخطوات بطيئة ، حزين النفس مكتئب الصدر . الكل يترحم على الفقيد . تذكرت عزة وزفافي الذي لم يتم . يا لها من قصة ! . . لا بد ان يتأخر حفل الزفاف اربعين يوما على الاقل ، لن يقام بالطبع حفل وانما سيتم كل شيء في هدوء ، فهذا هو الواجب وهذه هي التقاليد .

اليوم هو الخميس ، اليوم المحدد لحفل زفافي ، شاءت الاقدار ان نجعله يوم تشييع جنازة الفقيد . . تبا للاقدار العمياء ! . . وتبا لحفلي العاثر ! .

مدحت يبكي اباه ، اقتربت منه وواسيته ، الكلمات كانت فاترة ولم احس بصدقها . واصلت سيري البطيء ، وكأنه يوم ليس له اخر . كان القيظ شديدا ، والعرق يتصبب من جلدي كثيفا ، وحارا .

واجهت الموقف بشجاعة ، حاولت ترويض النفس لتقبل الوضع الجديد ، أديت واجباتي نحو الاسرة ، ولم ابح باكتئابي أو احاسيسي القلقة . كتمت انفعالاتي وحرصت على رعاية عزة والاهتمام بأمرها . حاولت ان اشغلها عن الفجيعة التي تحس لوعتها كلما خلت لنفسها ، كنت الازمها أطول فترة ممكنة . لقد احبت اباها وتعلقت به ، كانت تركن اليه ملتمسة منه النصيحة والتوجيه ، وكانت تستسلم لمداعباته وتعتاد عليها ، حتى باتت ضرورة يومية ملحة . لم تكن تطيق تغيبه عن البيت ، واذا ما تأخر في عمله تقلق على غيابه ، وتحسب الدقائق في قلق حتى يعود فيرتاح بالها ويطمئن خاطرها .

وكثيرا ما كان يقول لها مازحا :

— يبدو اني لم اتزوج احسان امك ، وانما تزوجتك انت . . فاحسان لا تقلق علي مثلك .

ويطبع قبلة حانية على جبينها الوضاء .

لم تكن عزة تحدثني في شيء الا ويتطرق بها القول الى ابيها الذي افتقدته . . لم اعد اسمع منها شيئا سوى حكايات كثيرة عن ابيها ، حبيبها الغائب . . ولم اكن اتضايق من حديثها ، بل انصت اليها واصغي لما تقول . لكن الدموع سرعان ما تسيل على خديها في الم ومرارة ، فتخنقني العبرات ، واحس حقا بأن عزة ليست سوى نفسي التي ارعاها واصونها .

قالت لي امي ذات مرة :

— ماذا تنوي ؟ .

— انوي ! . . لا شيء .

— لا شيء ! . . كيف ؟ . . هل الموت يمنعنا من ان نعيش ؟ .

— تقصدين . . .

— ليس في الامر ما يعيب . . انها مشيئة القدر ، لماذا اذن تحمل نفسك ما لا تطيق ؟ .

— هل ترضى بالحياة معي ، وما تزال تجتر صورة ابيها في مخيلتها وتبكي فراقه ؟! .

أسهمت امي قليلا ، ثم قالت :

— انك لا تكاد تفارقها . . فما الذي يمنعكما من ان تعيشا في بيت واحد ؟ . لن نقيم حفلا . . ستصحب عزة ، زوجتك ، الى بيتكما .

— حقا ما تقولين . . لكن كيف أواجهها ؟ .

— سأتكلم انا . .

وتركت لامي حرية التصرف . وبسرعة عجيبة وجدت اخاها مدحت يحادثني في امر زواجي ويردد نفس الكلمات التي قالتها امي .

— ان عزة زوجتك منذ اشهر مضت ، وما دام الحفل قد الغي فليس في الامر ما يعيب .

وخفق قلبي . . احسست بأن الحياة التي سلبتني الكثير من سعادتي ، بدات تشرق ، ولو انها اشراقة باهتة مثل اشراقة شمس الشتاء ، الا انها داعبت احلامي واحيت الامل في اشراقة شمس الربيع الرائعة .

تم كل شيء في صمت وهدوء .

ان عزة التي وجف قلبها حزنا وألما على فراقه ، ما تزال تجتر ذكراه ، وتبكيه . مسحة الحزن تغلف وجهها المشرق فيرتسم على ملامحها الانين والاسى ، ويخبو بريق عينيها . حاولت ان اخرجها من عالمها الحزين ، واعوضها عن ابيها ، لكن محاولاتي ضاعت هباء ، ولم تعد تجدي معها حيلي . نقص وزنها ، وتغيرت صورتها المشرقة ، لم يعد يطالعني بريق عينيها وضحكات شفتيها ، صارت امراة اخرى . لم تعد الايام تحمل لي شيئا حلوا . صحتها تزداد سوءا حتى لزمت الفراش صريعة الحمى . ما تزال عزة شيئا ثمينا احرص عليه واتشبث به . . قدمت طلبا باجازة لمدة اسبوع ، ولازمتها ليل نهار ، اتبعت ارشادات الطبيب حتى شفيت تماما .

احسست تحولا كبيرا في شخصيتها ، بدات تفيق على صورتي وتهتم بي ، بعد ان اعتكفت الحياة والناس ، قالت لي في حنان جارف :

— لقد تحملتني كثيرا ، ولازمتني في محنة الموت ومحنة المرض .

تحولت الى شخصيتها المرحة ، وباتت تحرص على اسعادي ، وتهتم بي . الا انها احيانا تختلي في غرفتها ، وتذهل عما حولها ، ولم اشأ ان اتطفل عليها او اباغتها ، وانما اتركها حتى تفيق وتعود الى طبيعتها . تعودت منها هذا الشرود ، لكني لم احاول منعه ، وان كان يسبب لي ضيقا .

خلعت ثوب الحداد ، وتزينت . حاولت عزة ان تبدد الشبح الكئيب الذي جثم على انفاسها ، وبدات تقترب من واقع الحياة ، فأحسست بنسائم ربيعية رقيقة تهب على بيتنا الصغير وتمنحه انفاس الحياة ، واحسست بتباشير

السعادة تهل علينا . الا انها سحابة صيف سرعان ما تبددت وعادالبيت الى انينه واكتآبه ، فذات مساء أفزعني صراخها ، احتضنتني وهي تصرخ في هلع :

ـ عادل .. عادل ..

فأدركت انها حلمت حلما مفزعا. طوقتها بذراعاي ثم اضأت النور .. وبعد برهة ، استردت انفاسها اللاهثة وافاقت من حلمها المزعج ، تنهدت وقالت :

ـ رايته .. رايته .

وضحكت :

ـ رأيته يا عادل ...

ـ من ؟ .. رأيت من ؟ ..

ـ ابي .. كان يضحك ، كان يرقص في حفل زفافي ، يرقص رقصا طويلا .. كأنها رقصة الحياة ، او هي رقصةالحب .. لا .. انها ، انها رقصة الخلود ، الخلود الذي لا يعرف له انتهاء .. رأيته يا عادل .. كان يضحك ، ينظر لي ويضحك .. وظل يضحك ، ويضحك ، ويضحك .. ثم اسرع نحوي واحتضنني ، وحينذاك افقت ، ادركت ان ابي مات .. مات ! .. فصرخت ..

واجهشت بالبكاء ....

ـ مات يا عادل .. مات ابي .. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي اعرفها .

أانت صغيرة يا عزة ؟ .. اين ايمانك بالله ؟ . الا تعرفين اننا جميعا سنموت ؟! .

وفي اليوم التالي ، جلسنا جلسة عائلية . فباحت بحلمها للجميع وهي سعيدة بحلمها، فقد رأت اباها مرة وفاته . اكفهر وجه امها وتغيرت ملامحها ، وقالت امي على التو ..

ـ ربنا يستر .. فالحلم ينذر بالشؤم .

تنهدت عزة قائلة :

ـ شؤم ! .. كيف ؟! .

ـ تفسير الحلم هو ان شخصا ما سيموت ! .

شردت عزة طويلا ثم تركتنا واسرعت الى غرفتها في انفعال وعصبية .

عاتبت امي :

ـ ما هذا الكلام ؟ .. الا تعرفين ان عزة حساسة ؟ .

ـاندفعت في الكلام يا بني دون ان ادري أن تفسير الاحلام يستهويني ، هذه طبيعتي كما تعرف .

ـ لكن عزة تأثرت . لا شك انها تنتحب .

ـ لست اقصد . ربنا يطول في عمرك وعمرها . سأذهب لاصالحها .

ونهضت لتصالحها .

اصبحت عزة امرأة لا تحتمل ، تختلق مناسبة ما لتحدثني عن الموت والاموات ، ولا يلتذ لها حديث سواه . باتت تسالني اسئلة غريبة كالاطفال ، اسئلة انسان يتعرف على حقائق الكون لاول مرة ! .. ما الموت ؟! .. وكيف نموت ؟! .. واذا كان الموت حقيقة فهل هناك حقيقةاخرى تكمن وراءه ؟ .. ما السر الاعظم الذي ينطوي عليه الموت ؟ .

الموت هذه الكلمة الغامضة اصبحت تطاردني بها وتتفلسف حولها فكرهت الفلسفة ، ومللت حديثها . لاول مرة اشعربالملل واكره الساعات التي اقضيها في البيت .. اختلق مواعيد تافهة واشغل نفسي بارتباطات لا معنى لها حتى اهرب من الجحيم الذي لا يطاق .

شيرين ، زميلتي في العمل ، تهتم بي وتوليني عناية خاصة . شخصيتها قوية ، كلماتها هادئة . اعجبتني طريقة تفكيرها ، فهي فتاة واقعية .. شكوت لها عزة ووصفت لها حالها ، فعللت لي ذلك بأن اباها قد اثر فيها تأثيرا قويا ، حتى بات من الصعب عليها ان تستقل بنفسها وتنسى صورته او حتى تتناساها .

سألتها :

ـ اهي تحب اباها اكثر مني ؟ .

ـ لا ادري ، لكن فراق ابيها لم يكن سهلا او هينا .

ـ عزة انسانة حساسة جدا ، وتنفعل لاتفه الامور .

ـ يجب ان تشملها بعطفك ، ولا تتذمر لتصرفاتها . واصل واجبك كزوج .. عليك ان تحرص عليها وترعاها .

كانت كلماتها حلوة رقيقة ، وكان رايها يعبر عما في نفسي تماما . ان شيرين تحاول ان تكشف لي ما في باطن نفسي ، علىعكس ما كنت اتصوره ، فقدظننت انها ستجذبني اليها وتقربني منها ، وتصرف انتباهي عن عزة ، لكنحدث العكس تماما . فكان سلوكها هذا دافعا لي للتشبث بها اكثر ، فلا شك انها فتاة نبيلة ، تتصرف بما يمليه عليها الضمير . بدات اوليها اهتمامي ، واتعمد الحديث معها . صارت حال زوجتي مثار حديثنا دائما ، لكني كنت اختلق الحديث اختلاقا حتى اقترب منها واكسب ودها ، وكم كان خجلي حين تورطت في اقوال مبالغ فيها . وقد دفعني الى هذا حرصي على التقرب من شيرين ، لكني تمزقت، واحسست بأني انسان غريب . احسست بأن ابتسامتها الهادئة تسخر مني ، وكلماتهاالرقيقة تتحداني ، وآراءها الرزينة تصفعني . صرت انسانا غريبا حتى عن نفسي . كانت تصرفاتي غير متزنة ، وكنت كمن يبحث عن شيء يبتغيه دون ان يتعرف على كنهه . احسست اني انحت الصخور بأظافري . حاولت البوح لها بعاطفتي ، لكني جبنت وخفت من نفسي برغم ثورتي عليها .

اعلن لي الطبيب فجأة :

ـ استعد لاستقبال مولود جديد .. عزة حامل .

أفقت حينذاك ، وادركت اني

زوج، وسأصبح ابا . يجب ان اقبر احاسيسي المتمردة . شيرين صورة مشرقة اضاءت سماء حياتي الحالكة السوداء فجأة ثم اختفت .. أوه .. يجب ان تختفي .

حين سمعت شيرين مني النبأ الجديد ، انبسطت اريحيتها ، وداعبتني بكلمات رقيقة عن الاطفال وشغل البيت، ومسئولياتي الجديدة .. ثم قالت :

ـ سأزورك لاتعرف على زوجتك، واراعيها في ايام الولادة .

ـ اشكرك يا شيرين .

كانت تزورنا كثيرا ، وكنت احيانا ادعوها الى الغداء ، فأصحبها بعد خروجنا من المكتب الى البيت. اهتمت بزوجتي اهتماما زائدا ، فاعتبرت ذلك اهتماما بي . اكثرت امي من زيارتها . وامها تلازمها طول النهار والجزء الاكبر من الليل واحيانا تبيت معها . الجميع يولونها اهتماما كبيرا . ترى .. هل أثرت فيهم كل هذا التأثير ؟ .. ام ان شخصيتها تستميل الجميع وتستهويهم ؟ .. أم هي الشفقة والعطف ؟ .. لا ادري بالضبط ، لكني الفيت نفسي ايضا اوليها اهتمامي بعد طول جفاء واحاول التقرب منها . ان الذي كان يدهشني هو انها لا تعاتبني على جفائي ، لا شك انها تختزن في اعماقها كل الاحزان والهموم . يا لها من امرأة ! .. انها لا تشكو ، فقط تصف لي احساسها .

قالت لي ذات يوم :

ان الوليد سيشبه ابي ..

ـ كيف عرفت ؟ .

ـ فراستي .. انا سعيدة يا عادل . لقد تغيرت .. اعرف انك تضايقت مني ، لكن الجنين الذي في احشائي يشغل بالي واحس .. أحس انه بديل لابي .. ان روح ابي ستحل في جسده !!

ـ مرة اخرى تتفلسفين .. انك تبدين لي كشخصية اغريقية لا سلطان على تفكيرها الا سلطان الاساطير .

ـ تغضب كثيرا ..

ـ لست غاضبا ..

وتركتها وهرعت الى غرفتي ، أحرق انفاس الليل بسجائري .

اشرف الدكتور عصمت على صحتها ، وتكفل برعايتها . همس في اذني ذات مرة :

ـ اقول لك الحق ، انا قلق على صحتها . أرجو ان تكون الولادة طبيعية .

ـ ماذا تعني يا دكتور ؟ .

اجابني بنظرة عميقة جسدتها عوينات نظارته تجسيدا مخيفا . زم شفتيه ، واطرق برهة ثم قال :

ـ لا ادري .. انه حدس الطبيب . عزة مريضة بالحساسية وقد تؤثر على صحتها اثناء الرضع .

حقا هي مريضة ، وانا اول من شخص لها هذا المرض . لقد تسببت عقدة نفسية في زرع المرض في دمائها ، لكن ما العمل ؟ .

اتصلت هاتفيا بالدكتور عصمت حين بدات تعاني الام الوضع . كان موقفا عصيبا بالنسبة لي ، تصبب العرق بغزارة من جبهتي واحسست بأني على وشك الهذيان . قد اكون مصابا بالحمى ، لا ادري .. صوت الطبيب يهمس في أذني :

ـ سأنقلها الى المستشفى ، الولادة عسيرة .

يا الهي ! .. كيف تتحمل عزة هذه الالام المبرحة ؟ . خشيت ان يتطلب الامر معجزة من السماء .

امام باب غرفة العمليات المغلق، وقفت مضطربا ، احرق السجائر بعصبية ، واخشى ان .. ان تموت .. يا الهي .. اني احس بطعم الموت ، لكم هو مرير وقاس . لكنه قضاء الله ، ويجب ان نسلم به . واذا ماتت ، فستستريح من الامها المبرحة . تذكرت الان حلمها البغيض ، وتفسير امي للحلم . احقا يتحقق الحلم ؟! . في غضون الايام الاخيرة ، كانت تكثر الحديث عن الموت وتسألني اسئلتها المبهمة، وكأنها مدركة دنو اجلها . ليكن قضاء الله ، او حظي العاثر ، فأنا راض به . لكن .. لا بد ان يعيش الجنين ، لن يموت . انه ابني ، وابنها . سيكون الوليد ذكرى عزيزة لامه . سأحسن تربيته ، وارعاه . لكن ! .. اني في حاجة الى المراة التي ترعاه . اوه ! .. انها شيرين ، الفتاة الرقيقة المهذبة . انها انسانة نبيلة ، وقفت بجانبي حتى هذه اللحظات دون اي غرض او مصلحة .. انها تستهويني، وتناسبني كزوجة ترعى الوليد الجديد . سيمر اربعون يوما قبل ان اشرع في مثل هذا الزواج ، أمي قد تعجل بي ، وقد أطيعها .

تخرج احدى الممرضات من غرفة العمليات ، تمليت في وجهها الصامت ثم استفسرت :

ـ ماتت ! .

ـ لم تمت . تشجع يا استاذ عادل . ان الاطباء يحاولون انقاذها لكن يبدو ان لا امل .

ـ والمولود ! .

ـ بالطبع سيعيش .

يا للاطباء ! .. اناس متفائلون حتى اللحظات الأخيرة . يدعون انهم سينقذون المرء من الموت ، بينما هم موقنون بأنه سيموت في النهاية . انا الوحيد الذي اعرف النهاية المحتومة واروض نفسي على قبولها . ان الحلم البغيض ما يزال يرن صداه في اعماقي ، انه يتحقق في هذه اللحظات العصيبة. شيرين خير امراة تصلح لي وللمولود الجديد . سأهتم به واجعله شغلي الشاغل . سأشترط على شيرين ان تربي المولود وترعاه كأنه ابنها تماما ، ستكون امه عوضا عن عزة التي ماتت .. ماتت ! .. أوه .. ماذا اقول ؟ .. أماتت حقا ؟! .. يا للافكار السوداء ! .

وعد الى مدينة مرمية

رأيتك في سرير الشـوك
يا رملية العينين ، مرميه
تنقر لحمك الغربان ،
فتملؤني جراح البعـد ،
يا مكسورة الاغصان
أغمض جفنـي التعبـان
في لقيا ــ لنا ــ وراء التلة الخضراء
في الجـولان ،
في جفنيك محميه

رأيتك يـا قنيطرتي ،
كقبرة بقلب الصبح
تشكو فرقة الخلان من دارك ..
وتومي للشذى والريح ،
في أرتال زوارك .. ؟!
تبشرني ، بأن القمح والرمان ،
مضفور لاطيـارك ..
ولكن ، كف سجانك ،
مكبلة ، بحقد الاعور الدجال ،
يقفو روعة الازهار ، يذبلها ،
لان اظافر القرصـان ،
تخفي الخبث ، بالغـدر ،
شلت اذرع السجان
أيا مسلوبة الاردان

لن تنسى روابيـك ! .
لان بنادق الفرسان
آتيـــة ،
على وعد مع الجولان ،
في الفجر ، تحييك ...

جبتك يا هضاب الانس
يا مخضرة الاعطاف ، والقمه
لثمت ترابك المحزون ، في بانياس ، والحمه
فلا تأسي ، لان الشمس في حرمون ،
لن تطفـأ .. ولن تطفـأ !! ..
فيا مرهقة الازهـار
عمري ، ليته ما كـان
ان مـت ،
ولـم أثـأر .. !
وهذا « نذري » المحتوم
ــ أن أثـأر ــ
لعينيك الزنود السمر
آتيـة ،
مع الفجر ، مع الفجر
لتحييك ..
فلا تأسي ، قنيطرتي ...

دمشق — اسماعيل عامود

الطبيب يخرج من غرفة العمليات ، مهرولا نحوي . يبدو عليه الاعياء والاجهاد ، يقول لي :

ــ انها ارادة الله .

ــ ماتت ! .

ــ اواسيك .

انهمرت الدموع من عيناي .

ــ اضطررنا الـى الاجهاض لننقذ الام . يجب ان يحدث شيء كهذا . كان الجنين مؤنثا مثلما انت تتوقع ، لكن مشيئة الله ارادت ذلك . اعتقد ان نجاة الام تعادل التضحية بالجنين .

ــ عزة لم تمت ؟ .

لست ادري لماذا لم اصدق ما قاله الطبيب ؟ . هرعت اليها لاتأكد بنفسي . الفيتها ترنو الي بعينيها الوادعتين ، وانفاسها اللاهثة كأنها تعتب على جحودي .

ــ عزة ...

ثم اختنقت الكلمات في حلقي فأسعفتني الدموع .

صوت الممرضـة يتناهى الى اذناي :

ــ حقا هي دموع الفرح . مبروك يا استاذ عادل ، فالزوجة لا تعوض ابدا .

قبلت جبينها الوضاء . ان حبا رائعا ولد الان ، واحسست به قويا وعظيما . احسست بقوى خفيـة تشدني اليها . حقا مات الجنين ، لكن حبا عظيما ولد الان في قلبـي ، واضاء جوانب نفسي الحائـرة . احسست بأن نفسي قد تطهرت من دناياها ، وهواجسها . لم تفق عزة من المخدر بعد ، الا ان عينيها تعلقتا بي ، كانتا رائعتين حقا .

القاهرة — حسني سيد لبيب

مكتبة الاديب



مع الريح

مجموعة شعرية ـ للشاعر الفقيد عبد السلام عيون السود ـ ١١٨ صفحة ـ منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي بسورية.

ديوان صغير من الشعر ، باقة منضرة من الالحان ، ابيات معدودة تجهش بالعواطف ، حياة قصيرة كالومضة الزائلة ثم موت وانتهاء وتراب، وبعد خمسة عشر عاما من النسيان والصمت تصدر مجموعة شاعرنا الفقيد عبد السلام عيون السود « مع الريح » فتستقبلها الاوساط الادبية هنا استقبالا حارا ، من عاصروا الشاعر في حياته يمجدون مرحلته وطريقته ، ويدعون الشعراء الجدد للعودة الى نبع الشعر المهموس ، المقفى الغنائي الهادىء ، والشعراء الجدد يجدون في شعر عبد السلام عيون السود ومدرسته الفنية مرحلة يرتبط تقييمها النقدي بتاريخ ولادتها وامتدادها ، ويطالبون بتجاوزها لاختلاف ظروف وطبيعة وتركيب وهموم المجتمع في اوائل الخمسينات عنه في اواخر الستينات.

وقبل ان نصاحب الشاعر في رحلته « مع الريح » ينبغي أن يعرف القارىء لمحة عن حياته وشاعريته حتى يربط بينهما وبين قصائد الديوان فتخرج الصورة عندئذ شبه متكاملة ويتاح لمن يريد ان يكون فكرة عن الشاعر ان يلتقطها من خلال هذه السطور والآراء والمعلومات التي سترد في هذه الكلمة النقدية السريعة ، اذ مما يؤسف له ان الذين كتبوا عن عبد السلام ودرسوه وقيموا شعره قلة ولي الفخر ان أكون في مقدمتهم فقد نشرت عنه دراسات وتعليقات ولقطات في الصحف الحمصية خاصة منذ عشر سنوات وما ازال كلما اكتشفت جديدا في شخصيته الشعرية ، أعرضه واوضحه رغم قلة القصائد التي خلفها الشاعر بعد موته ، وضآلة الاخبار والمصادر التي تحكي عن حياته .

ولد عبد السلام عيون السود في حمص عام ١٩٢٢ وبعد دراسته الابتدائية التحق طالبا في الكلية الشرعية بحلب حيث توثقت لغته ونضج فهمه ، وتعمقت قراءاته في الشعر العربي القديم وخاصة البحتري والنواسي والشريف الرضي ، ثم ترك الدراسة مبكرا تحت ضغط الحاجة والفقر ، فعمل موظفا بسيطا في الانتاج الزراعي ثم في وزارة المالية ثم ملاحظا في مطار .

وفي العشرين من عمره بدأ كتابة الشعر بشكل مغرق في تقليدية مسطحة ، ثم بعد ان اطلع على نتائج شعراء المدرسة الرومانتيكية والرمزية في الادبين العربي والفرنسي وهضم مطعيات بعض روادهما ، اصبح ذا اتجاه متميز في الشعر ، وكعادة الاهل المحافظين، تزوج عبد السلام في بدء شبابه ، بعد أن أخفق في حبه ، ومات عن ثلاثة اولاد وزوجة غمرته بحنان عجيب في حياته ، واستمرت بعد مماته دون زواج تعكف على تربية ابنائه الذين اصبحوا الان شبابا وصبايا .

أصيب عبد السلام بمرض التوسع الاكليلي في القلب واكتشفه في مراحله الاخيرة ، قبل وفاته بثلاث سنوات مما جعل شفاءه مستحيلا ، وكان لا يستجيب لنصائح الاطباء في الاقلاع عن التدخين والسهر والتعب والانفعالات ، وتعاطي المشروبات الروحية ، مما عجل في وفاته بتاريخ ١٥ كانون الثاني ١٩٥٤ وكان في الثانية والثلاثين من عمره .

يبدو عبد السلام عيون السود في شعره شاعرا مضني وانسانا معذبا وفكرا يائسا ، يستقطب موضوعاته الشعرية من نقطة واحدة، ومنطلق أثير هو الحزن ويجمع احاسيسه العاطفية في هذا الملتقى ويسربلها بشهقة من الالم والصمت . الا ان حزنه حزن بلوري شفيف ليس فيه طبيعة الثورة أو صفة الانعتاق كحزن أستاذه وصفي القرنفلي، انه حزن الانسان الذي حدس قدره وأدرك مصيره فلا واحة لديه يستروح فيها عبق الامل ولا اشراقة روحية تعصف بكيانه فترده الى التعلق بأهداب الحياة . لقد كانت خطا المأساة تنتحب في كل سطر من شعره والغرابة كل الغرابة ان هذه المأساة لم تثر يوما ولم تعربد ، بل طأطأت للمصير طأطأة الشراع ، اسلم للموج .. دغدغه الموج ولواه ، ثم احتضنه وقبله وطواه .

وقد كانت آثار هذا الحزن ومردوداته النفسية تبدو في موضوعين متلاحمين من شعر عبد السلام هما المرض والحب ، وما اكثر ما يبتلى الشعراء بهذين الداءين ، وما اقسى ما يلاقون منهما فاذا بهما يتداخلان تداخلا عجيبا حتى ليحار المرء في التفريق بينهما أيهما السبب وايهما النتيجة ، فيجمعهما بعد طول حيرة في قرن واحد . اولم يكن أبو القاسم الشابي يعاني مأساة عبد السلام نفسها : مرض القلب والحب ؟ .. اولم يعبر عن هذه المأساة في شعره الحزين اليائس ؟ ..

كذا فعل عبد السلام ، عبر عن تجربته حيال مرضه اولا وحيال حبه ثانيا وجمع بينهما في اكثر الاحيان وها هوذا في قصيدته « متعب » يرسم ظلال مأساته ، مرض في القلب وتعب ينعكس على الروح قبل ان ينعكس على الجسد ، وكانه بذلك يعيد صرخة مالارميه المتهالكة : « ان الجسد لحزين » .

أنا يا أخت متعب ، وسلي الريح ، سليها تجبك عن اعيائي
وانا أنت في انفلات الاعاصير بدنياي ، وامتداد شتائي
شفني الدرب فارتميت على الدرب ، مصيرا معصبا بدمائي
كيف أحيا يا أخت ، ادركني الليل ودب الصقيع في اعضائي
وتهاويت مثقلا ناء بالعبء فالقى يديه : خيطي عناء

والشاعر في قصائده عامة يحكي حكاية تعبه في تنسيق شعري فائق للعادة ، تنسيق في الالفاظ بهمسها الرقيق ، وظلها الوريف ودلالاتها الشعورية الخصبة وتنسيق في الصور بأبعادها الرمادية وملمسها الرومانتيكي وقدرتها على الايحاء . ومن هنا فالقصيدة عند عبد السلام ، معاناة يعبر عنها باخلاص فني مرهف ، فنحن لا نلمح في شعره زيفا او تصنعا في تحويل التجربة الواقعية الى صنيع جمالي ، بل نقع على عفوية مسيجة بالحدود الفنية ، ولا شك أن ترسخ المرض في قلب شاعرنا هو الذي اسبغ على شعره هذه القشعريرة الرومانتيكية الاسيانة اذ لعبت في قصائده ، كانسان ممزق وضائع وقلق ، دورا كبيرا فاغنته بفيض من المشاعر الكئيبة والاحاسيس المتعبة والالوان القاتمة ، وقل ان نجد شاعرا معاصرا تمثل تجربته المأساوية وعبر عنها تعبيرا فنيا صادقا كما تمثل عبد السلام تجربته وعبر عنها ، وها هوذا امام الموت وجها لوجه يخاطب زوجته :

أنا يا صديقة مرهق حتى العياء ، فكيف أنت ؟
وحدي أمام الموت ، لا احد سوى قلقي وصمتي
والليل اعمق ما يكون ، سرى .. واسفرار بعيده
وهناك في الاعماق آهات وأشواق جديده

اهفــو فتلتفـت الطريـق .. وتسأل النسمات عني
ويرود وجهـك فـي الذهــول ، فيطمئن اليـه ظني

وكان عبد السلام تلميذا مخلصا لوصفي قرنفلي يسير على مذهبه، ويقتفي خطاه ولا يتعجل في نشر قصائده وانما يعمل فيها جـــده واعصابه ويحرقها في المقطوعة الصغيرة حرقا ، ولكنه تفرد بالاسترسال الشعري وعفوية النظم ، وابتكار الموضوع ، انه يقول الشعر قولا فنيا ولا يصنعه صناعة مفضوحة ، وهو يعتمد في قصائده على رقة اللفظة وموسيقيتها ، وصفائها أكثر من اعتماده على تفجر الصور في خياله . وهكذا ابدع عبد السلام من القصيدة غمغمة طفولية حلوة سخية البوح وهتافا قلبيا صافيا ، وهو نسيج وحده في انتقاء الكلمة حتى ليخيل اليك انه يصوغها من المحال ، ففيها دفء حروف ، ونبع تـلاويـن وظلال ، الا ان معجمه ، احيانا يتقلص عن استيعاب الرؤى وململة الحس ، لذا يبدو في قصائده شاعرا مجفلا ، يريد ان يطوي درب الابداع الى النهاية غير ان ضآلة المفردات في ذهنه ، وقصور ثقافته اللغوية تعيقانه وتقطعان عليه المشوار وقد تكونان سببا في قلـة انتاجه ودورانه في حلقة ضيقة تستهدف ذاته فقط . لكن تكرار الالفــاظ ذاتها على لهاته لا يعيبه كشاعر لم يتعمق في موروثنا الشعري وينهل من عطاءاته الثرة ، انما قد يكسبه احيانا صفة البساطة المحببـــة والهمس الشعري الناعم :

بعيـدا ذهبت ولـم اذهــب　　وغافلـــت في الافـق الارحب
بعيـدا على هدهـدات النـداء　　وخفق الريـاح وحدو «الاب »
بعيدا الى حيث تفنى الحدود　　وتنهــد اجنحــة المـوكـب
بعيـدا وخلفتنـي في الدروب　　بقـايـا تمـوت مـع المغـرب

وكان عبد السلام مأخوذا في شعره الحزين بمذهب (البرناسيين) وخصوصا (مالارميه) لهذا انكب على ما ترجم له لانه لا يعـــرف الفرنسية هذا المذهب الذي تسقط فيه الدلالة المنطقيـة ، واللهجـة البيانية الخطابية ، وينأى عن استعمال اي تعبير مبتذل رخيـــص «الكليشه » ويسعى الى تحقيق شعر صاف مثالي ، يميل الى التانـق والفواء ويرتفع الى مرتبة الارستقراطية الشعورية فهو لا يعبر عـن الاشياء بل عما توحيه الاشياء او تذكر به .

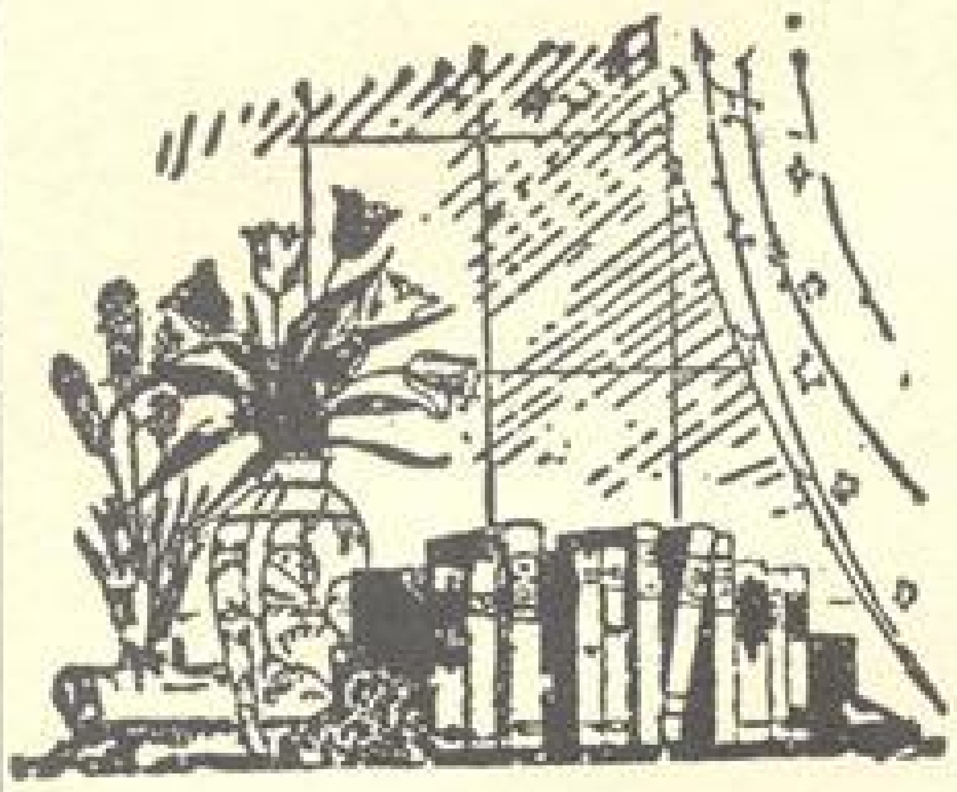
وبتأثير هذا التيار الشعري الفرنسي حاول عبد السلام ان يتجه نحو (الشعر الصافي) في نتاجه وقد نجح في ذلك نجاحا فائقـا ، فلو التفتنا الى الخفق الموسيقي في شعره لوجدناه وليد تآزر منسجم بين رنين اللفظة الشعرية النشوى وانسياب البحر العروضي ، واذا كانت موسيقى الشعر نصفه فان عبد السلام قد جبل انسراح موسيقاه مع دفق عواطفه ، فكان شاعرا يتطلع دوما الى العلاء وفـي جبينـــه رفيف الجناح اليافع ، وعذرية الكلمة البكر ، وانثيال العواطـــف الجاهشة . وهو اضافة الى ما ذكرناه صاحب موهبة غنية فــي مطلع قصيدته وختامها ... انه يعرف كيف تكون البداءة ـ لثغة مغزولة من اشعـة القمر ـ وكيف تكون نهايتها الحلوة على حلم ماتع ، وهكـــذا فقصيدة عبد السلام اطراقة رأس ، قبل جفون . وذهول خـاطر .. وهو لا يلبث أن يفتتح حتى ينتهي وكأنه يقول لك : أنا متعب ، ونفسي الشعري يتحشرج :

يـا دفء .. مـاذا جنيـــت　　طويتنـــي ، فـــانطـويـــت
مـــا ترتئيـــن ارتـأيــت　　وتشتهيـــن اشتهيــــت
اردتنـــي لـــك ظـــلا ..　　فكنتـــــه ، واكتفيـــــت
وانـــت ، أنـــت جـــراح　　علـــى شـــذاهـــا ارتميـــت

جنيـــت ، مـــاذا جنيـــت　　مضيـــت بـــي فمضيـــت

كتب عبد السلام من مقالة له بعنوان « صحو بليد » يقول ـ وبالمناسبة فان نثره كشعره حلاوة وموسيقى وصورا ـ : « اغفر للشاعر في مرحلته الاولى ان يلتزم طرائق تقليدية جاهزة في شعره ، اما ان

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر
يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العــادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل•ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
فــي الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنـى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد
الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلـة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩　Dir : 223819
المنزل ٢٢٥١٣٩　Dle : 225139 : Tel

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البيـر اديب

يحرق فيها كل مراحله التطويرية ، فموتا يموت » وما يصدق هذا الكلام على شيء قدر صدقه على عبد السلام وفنه فقد بدأ متعثـرا بأحابيل الكلاسيكيين في مثل قوله :

تسائلني بالله : كيف جفوتها — وكيف أمر اليوم مر المجانب
وتقسم أني قد سلوت وأنها — تخاف من التغرير بعد التجارب

واستوى في النهاية مع المجددين طبقا لزمنه .

وكان عبد السلام يصر على الموهبة الاصيلة عند الشاعر ، ويعتبرها في شتى مناخاتها اقوى من الموت ، كما كان يشكو من بلادة الحياة ورتابتها في مدينة كحمص لا تستطيع ان تزود الفنان بالتجارب الخلاقة وتسخو على طبقة معينة من الجوف والبله والحمقى والغريبين عنها ، بالنسق الاعلى ، وتبخل على ابنائها المزودين بالحاسة الفنية والقادرين على تسجيل انعكاساتها بصدق ، بالضئيل الضئيل من الانفتاح والتنفس والوجود ، واذا كان عبد السلام لم يحرم من الموهبة الاصيلة التي اعتبرها شرط الشاعر الفنان ، بل زود بفيض دافق منها ، فانه بالمقابل حرم من تنوع التجربة ، ومن لذة المعاناة ، ومن جمال الرحيل ، وفي هذا المعنى يقول : « لسنا اقل موهبة وحمى من بودلير وفيرلين ورامبو ، ولكننا مع الاسف لم نتعرض لما تعرضوا له من تجارب ولم نسعد بما سعدوا به من حضارة تتجاوب اصداؤها ثرة ملهمة حتى في اضيق الغرف » .

وللشاعر الفرنسي « رامبو » قولة مشهورة : « لقد عبيت » اطلقها بعد ان حاول ان يصل في القصيدة الى النظريات الفنية التي تطلبها في الشعر مثل « كيمياء اللفظة » ولكنه لم يستطع ان يحققها بعد اربع او خمس سنوات من بداءته لنظم الشعر فصمت وتحول من شاعر الى تاجر عاج وتوابل وذهب وعبيد في افريقيا . وفي عبد السلام مشابه من هذا الموقف ، لقد كثر شعره نسبيا ـ فهو بوجه عام شاعر مقل ـ منذ سنة ١٩٤٧ ، وحتى سنة ١٩٥١ ، ثم انطفأ بعدها انطفاء كليا ، والفارق بين رامبو وعبد السلام أن الاول سكت لانه طالب أن يحقق الفن الشعري شيئا لم يتمكن هو من تحقيقه ، فاعتزل كقائد شريف يخسر معركة ويحترم نفسه ، اما الثاني فقد الجمه الفقر والمرض والتناقضات الاجتماعية الحادة في سورية عشية الاستقلال ، فابتعد عن الشعر لانه ادرك نهايته اولا ، وكان يبحث باستمرار عن ثمن الرغيف والدواء ثانيا ، فما دور الشعر في احباط كهذا ؟ ..

اينعت موهبة عبد السلام عيون السود وأعطت ثمارها في مجلة « الاديب » فاعدادها منذ اواخر الاربعينات ، وحتى اوائل الخمسينات مرصعة بقصائده ، ولولا وجود هذه القصائد منشورة في « الاديب » لما اتيح لهذه المجموعة ان ترى النور فالمرجع الاول والاساسي في جمعها كانت أجزاء « الاديب » في تلك الفترة ، اذ ان الشاعر اسلم اوراقه واشعاره ورسائله للنيران ، قبل ان يلفظ آخر انفاسه .

حمص — **ممدوح السكاف**

•

في الادب العربي الحديث

بحوث ومقالات ـ للدكتور يوسف عز الدين ـ ٣٥٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة ؟

لا اظن ، اليوم ، اديبا يجهل ما اسدت ايادي الاستاذ الكبير الدكتور يوسف عز الدين في الادب العربي الحديث ، ولعل من كان يقرأ مؤلفاته القيمة يقر ـ معي ـ بانها من خيرة الاسفار التي تضمها المكتبة العربية والتي تتسم بالاصالة والموضوعية الجادة .

واليوم يطلع علينا كتابه « في الادب العربي الحديث » وهو زاخر بالبحوث الادبية الدسمة ، التي لا يستغنى عنها اديب ، سيما وقد حفلت هذه البحوث بالنصوص التأريخية من شعر ونثر فهو بحق ـ كما ارى ـ مصدر مهم من مصادر الدراسات الادبية .

يقع هذا الكتاب في ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير وقد بوب تبويبا حسنا ، وضع له مقدمة وافية في الادب ودوره المهم كأساس من اسس النهضة الفكرية ودعامة لبناء حضارة الامة ورقيها ، موضحا صلة الشاعر ببيئته ومجتمعه ، ورسالة الشعر في الحياة ومقوماته التي يستند عليهـا .

ثم يأتي بعد هذا التمهيد الجميل بذكر التيارات الادبية في العراق وجذورها العريقة التي تمتد الى التراث الاسلامي والعربي ، وروافده التي يستمد منها الفزارةوالحيوية ومن اهمها الدين الذييلعب دوره الاكبر في الادب حتى كان للشعر نصيبه الاوفر منه ، فقد اتسم الشعر بروح دينية منذ زمن صدر الاسلام وحتى وقتنا الحاضر ، تدعو الى الاخذ بتعاليم الاسلام والسير على نهجه والوقوف بوجه الظلم والكفر ، و (شعر الحسين) كما يذكره المؤلف الفاضل خير نموذج يستشهد فيه ويستدل به على دور الدين ، فان في شخصية الحسين عليه السلام المثل الحي الذي تجمعت فيه المثل الاسلامية .. استمد منه الشعراء وجعلوا منه مكتسبا لحياتهم .. ويأتي بعد ذلك بذكر الرافد الثالث الذي كان لا بد لمعظم الشعراء ان يستمدوا منه وينهلوا منهله ، وهو رافد المناسبات التي تهب الشاعر بعطائها اكثر ما شاء من التعبير في رحابها ..

ويجدر بي ان اشير الى ان شيئا قد يلفت النظر في هذا البحث وهو ان الاستاذ عزالدين ذكر في بدايته بأن التيار الادبي كانت تمده اربعة روافد (ص ١١) غير انه عندما يفصل في الحديث يذكر ثلاثة منها ، على وجه التحديد ، ويردفها بمواضيع اخرى ، كالصوفية والمرأة ، والفقر ، الخ .. ولم يشر بوضوح الى أي من هذه المواضيع هو رابع الروافد ؟ !

وبعد ان يقف على خاتمة المطاف في هذا البحث يقول : (هذه هي الملامح العامة للشعر العربي في العراق وقد اتخذته قاعدة للبحث عن الادب كله ، لان النثر في العراق لم يستكمل نضجه ولم يصل الى ما وصل اليه الشعر .. ص ٢٤) .

لذلك ارى لو كان الاستاذ الفاضل لم يحدد في بداية الحديث روافد الادب ، مقتصرا على القول بأن هناك عدة روافد ويستطرد في مقالاته ! ..

وتأتي بعد هذا البحث دراسة عن « أثر الفكر في الادب الحديث » وهو موضوع شيق لا يكاد يدعك تشعر بملل لما فيه من جزالة في الاسلوب وبساطة في التعبير متسلسلا في الافكار والنزعات ، وموضحا دورها الذي لعبته مع ذكر النماذج والنصوص الادبية في هذا الصدد ، وما استمده الادب الحديث منها ..

وتتلو هذه الدراسة دراسات قيمة اخرى عن الشعراء المبرزين من امثال معروف الرصافي وتجديده وثورته الفكرية ، وجميل صدقي الزهاوي ونزعاته واتجاهات شعره ، وابي القاسم الشابي الشاعر الذي اودى به القدر وهو في عنفوان الشباب مبينا الظروف التي اكتنفته واثرها في شعره . فدراسة عن المرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبي والمرحوم الشيخ اليعقوبي ومحمد الهاشمي وخيري الهنداوي وشاعر الارتجال الشيخ عبد المحسن الكاظمي مستشهداً لكل من المتقدمين بنماذج من شعره ومحللا الاغراض التي طرقها كل شاعر منهم مشفوعة بذكر النصوص الادبية في حقهم . ويأتي الاستاذ عزالدين بعد هذا كله بعرض سريع للقصة العراقية ونشأتها وما ظهر في الفترة الاخيرة من شباب كتبوا في القصة وتأثرهم بما ترسمه الحياة المعاصرة .. ويشفع

هذا البحث بنشأة الشعر الحر في العراق وعرض موجز لبعض من كتب في الشعر الحر مستشهدا بنماذج متعددة منه ..

ويختتم الاستاذ عزالدين كتابه بدراسة في ادب المرأة متحدثا عن مكانتها الاجتماعية فدراسة عن الشاعرة فدوى طوقان مع نماذج من شعرها وما لابسته من ظروف عصيبة اثرت فيه ودور وعد بلفور المشؤوم وغير ذلك مما جعل شعرها جياشا بكل ما كانت تعانيه فدى طوقان .

وذيل الاستاذ الفاضل كتابه بفهارس الاعلام والامكنة ومحتويات الكتاب ..

هذه لمحة سريعة موجزة في الادب العربي الحديث للدكتور يوسف عز الدين وهو غني عن التحدث عنه ، شاعرا وناثرا وحسبنا شاهدا مجاميعه الشعرية « في ضمير الزمن » و « الحان » و «لهات الحياة» وكتبه القيمة التي لا يسعنا الا ان نتحدث عنها ..

وختاما نشكر الاستاذ عزالدين صنيعه ونرجو للشباب ان يحتذوا حذوه ويقتدوا به وشكرا على هديته القيمة لنا ..

النجف الاشرف **محمد رضا آل صادق**

•

مـــا علينـــا

ديوان لعلي عبد الرحمن – ١٠٤ صفحات من الحجم الكبير – مطبعة شبير ببيروت .

كنت اذا التقيت ببيروت بعلي عبدالرحمن وهو من الموظفين المرموقين في كليه التربية بالجامعة اللبنانية ، لم أجده الا متحليا بالصمت معنيا بعمله اليومي حتى بدءت منه بوادر كلام تكشفت عن قدره وادبه وشعره وكان صاحبنا ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يقول ومعه أحسن الكلام فليقل وان للسكوت موضعا ، وللكلام موضع وكان مما ند من قول الشاعر الاديب علي عبد الرحمن ان له ديوانا قيد الطبع وقلت له ما سميته فأجاب :

– ما علينـــا ...

فرحت استشف من هذه الكلمة عالما من المعاني قد القي تبعاته على غيره وراحت تحميه هذه العبارة التي تنفي ما سمونه بالتعبير المعاصر « المسؤولية » .

ومرت شهور فاذا البريد يحمل الي الى دمشق ديوان « ما علينا » موسوما باسم الشاعر علي عبد الرحمن الذي أحب أن يدخل عالمنا الادبي بجواز كريم .

وقد استفتح الشاعر ديوانه باهداء اثر في تأثيرا بعيدا ذلك انه اهداه الى معلم هذب نفسه ونقى شعوره فانتقلت خيالاتي الى اناس علمتهم وحصلوا على درجات الدكتوراه وكانت أثارهم ورسائلهم تدلف الي بأيديهم مهداة الي حتى ان استاذا في كلية الحقوق بدمشق جاءني برسالة للدكتوراه مطبوعة وقد كتب في اهدائه .

– الى من علمني في التجهيز في الجامعة اهدي اول نسخة من رسالتي .

ولن يعجب قرائي الاعزة في « الاديب » الاغر انني حصلت على النقيض فثمة من علمتهم ولما اشتدت سواعدهم رموني .

وكيف دار الامر فانني اهتززت لذلك الاهداء ، وزاد اهتزازي حين عاينت مقدمته المختصرة التي كان فيها سديد الرأي حين لم يشأ ان يكتب له احد مقدمة على شعره وقد اخذ بحلبة من كلام الشاعر الكبير الياس ابو شبكة في ديوانه « الافاعي » عرف بها الشعر ومن تعريفه اياه القى المؤلف بين ايدي القراء ديوانه « ما علينا » وهو اول منتوجه .

وشاقه الناي والنغم في شعر الفريد دوموسيه بقصيدته المشهورة « اذكريني » فكانت اول قصائد في ديوانه مقطوعات متوالية بانشودة اذكريني .

وأخذ مقطوعات شعره وقصائده تتسر ومثل افواف بستان في مهب نسيم عليل بمطلع من مطالع الربيع فراح يغني حبه وآلامه وينشد اشواقه وتأملاته .

وقد تأنى في تشويق قرائه وكنت منهم ابحث عن قصيدة تحمل اسم الديوان فاذا بها تطالعني من اخر الديوان بقوله :

ما علينا لو حملنا
فوق كف النسمات
وتسلقنا خيوط
النور حتى النيرات

وحين ألقى الشاعر علي عبد الرحمن ساقول له :

– اين كان شعرك هذا مستترا فلم تعلن نفسك فيه للملأ قبل طبعه بديوان بانك شاعر .

وساروي له سيرة الشاعر الكبير والكاتب الناثر صديقي الاستاذ محمد سعيد العامودي أديب الحجاز كيف كنت القاه بمكة ويزورني فلا يشعرني بانه أديب او شاعر حتى حصلت على مجموع لآثاره كان قد قام بطبعه زعيم النهضة الفكرية الاستاذ الجليل محمد سرور الصبان ، فإن له كتابا في ادباء الحجاز وشعرائه ومنهم العامودي دعاهم الى ان يكونوا شعراء حقا وادباء مرموقين .

ولما عرفت ذلك قلت لصديقي الاستاذ العامودي (١) :

– يا لك متواضعا .

وكذلك ساقول لصديقي الشاعر الموهوب علي عبد الرحمن :

– من تواضع لله رفعه .

(١) للدكتور زكي المحاسني مقال ضاف عن الاديب الشاعر الاستاذ محمد سعيد العامودي تحليلا وعرضا لكتابه « من تاريخنا » تنشره زميلتنا مجلة « الرحمة » ببيروت . (الاديب) .

دمشق **زكي المحاسني**

•

هـل للانسـان مستقبل ؟

تأليف برتراند رسل – تصدير ارنولد توينبي – ترجمة سمير عبده – ١٥٥ صفحة – نشر دار دمشق .

لا ريب في ان اهم مشكلة تهدد حياة الانسان هي خطر الحرب النووية، ذلك الخطر المتسلط على رقاب البشر ، وهم لا يملكون الوسائل الكافية لتبديده ، او هم لا يفكرون في ذلك تفكيرا جديا ، قمينا بأن يزيح هذا الكابوس عن صدر الانسانية المهددة .

وبرتراند رسل هو اقدر من تصدى لهذا الخطر الماحق بالتحليل الوافي ، محاولا اعطاء الحلول الواقعية لدرئه او ابعاد شبحه ما أمكن . وما حداه الى تأليف مثل هذا الكتاب ، على حد تعبير توينبي ، الا « ذلك الاهتمام المخلص النابض بالمحافظة على الجنس البشري . وضمن هذه الفكرة الاساسية يمثل الكتاب نقدا بناء ، هو عنيف شديد الوطأة حينا لشرور الانسان وغبائه ، وللجرائم والحماقات التي ارتكبها . ولكن ذلك لا ينسيه المكاسب الروحية والفكرية التي حققهـا أفضل من يفضلون النوع البشري » .

مخاطر الحرب النووية : يسهب رسل في وصف وتحليل الاخطار

التي تهدد البشرية فيما اذا استمرت في طرق سيرها الراهنة . ويشير بصورة خاصة الى خطر القنبلة الهدروجينية وقنبلة الكوبالت والى قوتهما التدميرية ، كما يشير الى الخطر الناجم عن تعدد الدول المالكة للقنبلة النووية ، في حالة هي اقرب دوما الى حافة الحرب ، ولا سيما ان هنالك دوما حروب محلية يدعمها كل من المعسكرين المتخاصمين ، قد تنقلب فجاة الى حرب نووية عالمية تدمر الارض ومن عليها في غضون ساعات معدودة .

وغير خفي على احد ما صرح به العسكريون الاميركيون مرارا من ان كافة البشر مهددون الم يكن بالفناء السريع الماحق ، فبالموت البطيء بالامراض التي تسببها الاشعاعات النووية التي تحدث سرطان العظام وتخريب الخلايا وتشوه الجسم واضعاف النسل .

ويركز على عامل الخوف نفسه في خلق توتر حاد يدفع خطر الحرب الى اقصى سرعة ومفاجاة ، وهو يورد ما يقوله مؤلف اخر سيمور ملمان في كتابه « التفتيش على نزع السلاح » : ما دام التكتيك العسكري واساليب التقنية قد اصبحت قائمة على فكرة الرد السريع ، فان سوء تقدير واحد فقط قد يؤدي الى حرب نووية هائلة . وقد حدثت اخطاء بشأن هجوم روسي مزعوم ، حيث اعطيت عدة تحذيرات من اقتراب قاذفات قنابل سوفييتية ، وبدأت قاذفات القنابل الاميركية رحلة تدمير ردا على الهجوم المزعوم ، وتبين قبل فوات الاوان بأن الرادار كان يسجل طيران سرب من الاوز فوق غروينلند .

ان احتمالات حدوث كارثة عالمية بسبب خطأ بشري او تكنيكي لا يمكن تجاهلها .

فمن المحتمل ان يتسبب رجل معتوه او مصاب بامراض عصبية، فقد السيطرة على زمام نفسه ، ان يتسبب في انفجار اسلحة نووية في أي مكان من الارض .

ويهمنا في هذا المجال ان نعرف ما قاله رسل بالحرف الواحد :

« هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بان اسرائيل ستمتلك القنبلة الذرية قبل مضي وقت طويل ، ومن المؤكد ان تحذو الجمهورية العربية المتحدة حذوها » .

الحلول المقترحة : لهذا الوضع الخطر يقدم لنا رسل اربعة حلول اساسية يمكننا ارجاعها الى ثلاثة اذا نحن اعتبرنا «تخفيف حدة التوتر» حلا تمهيديا ، من شأنه ان يهيء الجو لخلق الظروف النفسية والسياسية للحلول الباقية .

وهنالك شرط اساسي لنجاح هذا الحل ، هو الاخلاص من قبل الطرفين في الجلوس على طاولة المفاوضات ، ليس بهدف تفوق وذكاء احدهما على الاخر ، لاطالة امد الامر الواقع ، والسير على حافة الحرب بغية اجبار الخصم على أعظم قدر ممكن من التنازلات وانما بوجود تصميم على التوصل الى اتفاقية عامة تحافظ على توازن سليم ، وتقضي على خطر الحرب النووية . ويعتاض عن الحرب بالتنافس على المشاريع الانمائية ، لرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي لدى الدول المتخلفة ، واحترام حياد الدول غير المنحازة ، وتقوية نفوذ هيئة الامم المتحدة ، لاعطائها صفة الحكم القدير والنزيه في المفاوضات المقبلة ، واحترام مبدأ تقرير المصير .

الحكومة العالمية : يعتبر هذا الاقتراح اجرأ حل يقترحه رسل للخلاص من الوضع الخطر الذي تتخبط فيه الانسانية ، ولئلا يتهم باضافة يوتوبية جديدة الى اليوتوبيات السالفة ، يقترح عددا من الاجراءات التمهيدية والمرافقة ، التي من شانها ان تجعل هذا الحل واقعيا ومقبولا .

فلا بد اذن من تنازل القوميات عن جزء من سيادتها للحكومة العالمية التي عليها ان تتسلم زمام الامور فيما يخص العلاقات الخارجية ومنها علاقات الحرب والسلم . كما يقترح انشاء اتحادات ثانوية كبرى تكون بمثابة مرحلة عابرة الى الحكومة الجديدة .

ويقترح ايضا مجلسا تشريعيا ومجلسا تنفيذيا وقوة عسكرية تأتمر بامرها لتتمكن من فرض السلام بين الدول المتخاصمة . كما يطلب من الدول الحالية ان تنزع سلاحها الذري لتتسلمها السلطة الموحدة ، فيسهل عليها تلافي اخطار الحرب او اطفائها قبل امتدادها .

ويوكل اليها مهام تنسيق الاقتصاد العالمي ، وتخفيض الهوة الفاصلة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، كما يقترح ايضا ان يكون لها دستور فدرالي وقوانين عالمية تخضع لها حتى الاتحادات الثنائية والدول الحالية ، وذلك لتفادي اخطار الدكتاتوريات العسكرية، او الجموح الى طرق في الحكم تهدد السلام العالمي ومصير البشرية .

نزع السلاح : يقول رسل : « ان الخطوة الاولى يجب ان تكون ايقاف التجارب النووية . والثانية منع انتشار الاسلحة النووية الى دول جديدة . والتالية هي عقد اتفاقية عامة للكف عن صنع الاسلحة النووية ، هذه الاتفاقية تتطلب نظاما دقيقا للتفتيش . ويأسف رسل لما ابداه الغرب من سلبية ازاء اقتراح خروشوف بنزع السلاح الشامل ، رغم جديته ، كما يطعن بكافة مؤتمرات نزع السلاح ، ويصفها بأنها عقدت بشكل يدعو الى السأم . ويضيف : « فلا الشرق ولا الغرب يرغب بصدق في نزع السلاح ، انما يهتم بايجاد طرق للاعلان عن رغبته في نزع السلاح دون محاولة للتطبيق » .

المشكلات الاقليمية : وهو برأيي اضعف الحلول المقترحة من حيث ضعف المعالجة . فهو يسهب في تحليل قضية برلين ، في حين لا يتعرض بما فيه الكفاية لقضية كوبا والكونغو وفييتنام او لما اصطلح على تسميته بقضية الشرق الاوسط .

وكان لا بد له كفيلسوف عالمي ان يعالج قضية القومية بعمقها وشمولها ويعطيها كافة ابعادها الانسانية والحضارية التاريخية والاجتماعية المتطورة ، لكي يميز بين القوميات الاصيلة التي اعطت الانسانية حضارات متتابعة ومتكاملة ، والقوميات المصطنعة التي زرعها الاستعمار الحديث قلاعا عسكرية ومستعمرات استيطانية ، في قلب القوميات الاصيلة ، فكانت اشبه شيء بالسرطان منها باي جسم اخر . وطبيعي ان يؤدي ذلك الى اختلال توازن السلام في بقاع عديدة

من العالم ، وهذا من صلب موضوع هذا الكتاب .

كذلك فان مفهوم الحرية والديموقراطية لم يعالجها بعمق فلسفي من شأنه ان يؤدي الى تطوير العالم نحو سلم حقيقي وعادل وثابت الركائز .

ورغم كل ذلك فالكتاب قيم وهام ، لما ينبه اليه من اخطار داهمة، ولما يعطيه من حلول واقعية للخروج من هذه الاوضاع القلقة . وبوسعنا ان نهنىء المترجم الاستاذ سمير عبده ليس للجهد المبذول في ترجمة هذا الكتاب القيم ، بل ولحسن اختياره امثال هذه الكتب التي يهم كل انسان واع اقتناؤها ومطالعتها لئلا يبقى في جهل فاضح للمصير القاتم الذي يتهدده .

ولا بد لنا ان نشير اخيرا الى فسحة الامل والتفاؤل التي اختتم بها رسل كتابه هذا :

« ان تحرير الروح الانسانية يمكن ان يؤدي الى مجالات ورؤى جديدة ، من المستحيل ان تتحقق في عالم الماضي الشرس . وانني لأرى بعين خيالي عالما من المجد والسرور ، عالما يسرح فيه العقل ، عالما يظل فيه الامل زاهرا[1] . كل ذلك يمكن ان يتحقق ، وعلى جيلنا تقع مسؤولية القرار في الاختيار بين هذه الرؤيا او بين نهاية يجرها على نفسه بحماقته » .

دمشق — داود درويش

•

اليهود في القرآن الكريم

تأليف : عفيف عبد الفتاح طبارة — ٢٤٠ صفحة — مطبعة دار الكتب — بيروت — الطبعة الاولى سنة ١٩٦٦

ربما كان الاحتلال الصهيوني لاجزاء من الوطن العربي هو الموضوع الذي يشغل كل ذهن ويحتل ساحة التفكير والانتباه عند كل انسان منا في هذه الظروف . فليس عجيبا اذا ان يسترعي انتباهي سريعا كتاب بعنوان « اليهود في القرآن الكريم » فأعمد الى شرائه وقراءته لاستكنه محتواه واعرف ما قاله القرآن الكريم عن اليهود . واذا كنت قد قرأت القرآن بمجموعه فان قراءتي له ، فيما يتصل بالاطلاع على ما ورد فيه بشأن اليهود ، لا تماثل قراءة هذا الكتاب ، ذلك لان المفترض في مؤلفه ان يكون قد جمع الايات التي لها علاقة بذكر اليهود جميعها ، وبوبها وناقشها بطريقة خاصة وتفكير خاص . واذا فبالاضافة الى محتويات الكتاب من آيات مبوبة مرتبة ، يتوقع القارىء ان يطلع على وجهة نظر انسان مثقف في مثل هذا الموضوع الهام ، بينما يرد ذكر اليهود في القرآن بشكل موجز متفرق حسب مناسبات القول .

والكتاب تأليف عفيف عبد الفتاح طبارة ويقع في ٢٤٠ صفحة من القطع العادي وقد قسمه مؤلفه الى اربعة ابواب خصص الباب الاول ليعرض من خلاله اليهود في نظر القرآن . والباب الثاني تناول فيه قصة احد انبياء اليهود البارزين يوسف كما وردت في القرآن . وانتقل في الباب الثالث ليحكي لنا قصة موسى كما رواها القرآن الكريم . واختتم كتابه في الباب الرابع بالقاء اضواء على القصة في القرآن .

وقارىء الكتاب يجد على مغلفه بخط كبير عبارة « اليهود في القرآن الكريم » وتحتها بخط عادي : « تحليل علمي لنصوص القرآن في اليهود على ضوء الاحداث الحاضرة مع دراسة وتفسير قصتي يوسف وموسى وما فيهما من عبر » . واريد الان ان القي ضوءا على مدى تقيد الكاتب بهذا العنوان في كتابه .

فنحن نجد في الباب الاول حديثا عن أسماء اليهود واصلهم واول هجرة لهم الى الجزيرة العربية وموقفهم من الاسلام حين ظهوره ولقائهم مع الرسول في يثرب ، ثم النزاع الذي كان بينه وبينهم وتآمرهم على الاسلام ، ثم نطلع على مناقشة اسباب حبهم للمال ، والمادية المسيطرة عليهم ، ونعرف شيئا من غرورهم وجبنهم وغدرهم واجرامهم وافسادهم في الارض واثارتهم للحروب وممارستهم للسحر . ويتحدث الكتاب في فصل من فصول هذا الباب عن سبب هجاء القرآن لهم ، ووصاياه التي ألقاها عليهم ويسرد لنا بعدئذ حديثا عن الحروب التي دارت بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي نهايته ينقل لنا اخبارا مختلفة عما لاقاه اليهود من اضطهاد في مختلف بقاع العالم ، وعلى مر العصور ، ثم يعلل لنا اسباب هذا الاضطهاد .

ونستطيع ان نقول بأن هذا الباب مكرس كليا للحديث عن اليهود ، وان لم يقتصر على ذكر القرآن لهم ، او على علاقتهم بالعرب والمسلمين الا انه يتصل اتصالا مباشرا او غير مباشر بالعنوان الاساسي للكتاب. هذا اذا استثنينا بعض المواعظ والارشادات وبعض العبارات التي أريد منها اثبات ان القرآن وحي منزل من الله ، والتي يخرج فيها المؤلف عن طور الكاتب الموضوعي في بحث من الابحاث الى طور الخطيب والمرشد . وانا لا أعترض على طبيعة هذه الارشادات والعبارات لانها قيمة دون ريب ، ولكن اعتراضي على مكانها المقلقل بين اسطر الكتاب حيث تكاد تخرج بنا عن موضوعنا الاساسي الذي نحن بصدده ، اذ أن الغاية الرئيسية من الكتاب هي أن يعرض علينا اليهود كما ورد ذكرهم في القرآن لا ان يرشدنا ويعظنا ويثبت لنا وحدانية الله وصحة وحيه الى رسوله فذلك له مجاله الخاص .

وينتقل المؤلف في الباب الثاني ليروي لنا قصة يوسف النبي اليهودي كما جاءت في السورة المسماة باسمه . ولقد وفق غاية التوفيق في تحليلها وعرضها وتوضيح الجوانب الموجزة منها ، فكان يعمد الى كل فقرة فيحلل معانيها ثم يعرض علينا الايات التي تحكيها بعد ان نكون قد استوعبنا جميع ابعادها . ولكنه يسبق كل مجموعة من الايات بعبارة : « واقرأوا هذه الايات » وارى ان تكرار تلك الجملة الطلبية بهذه الكثرة لا مبرر له ، فيكفي ان يورد لنا الايات لنقرأها ولن نمتنع عن القراءة اذا ما حذف عبارته هذه .

ويصل بنا في الباب الثالث الى سرد قصة موسى عليه السلام مع فرعون فيعرضها بالطريقة البارعة الشيقة التي عرض بها القصة السابقة . وينهي كلا من البابين الثاني والثالث بحديث عن الدروس والعبر المأخوذة من كل قصة . وهذه العبر رغم جمالها الذاتي فانها تبتعد دون ريب عن العنوان الذي لفت انتباهنا حول اليهود في القرآن ، اذ يتخيل القارىء في بادىء الامر انها عبر تتصل بشيء من المقارنة بين ما ورد في القصتين عن اليهود وبين ما نراهم عليه الان في عالمنا المعاصر . ولكن هذه المقارنة لم نر منها الا النزر اليسير ، وانصرف هدف الكاتب الى التحليل الفكري الاسلوبي للقصتين واهمل هذا الجانب المتصل بموضوعنا الاساسي .

ثم القى المؤلف في الباب الرابع بعض الاضواء على القصة في القرآن الكريم ، وأظن أن القارىء يوافقني هنا اذا اشرت الى مدى التباعد الفكري بين هذا الباب وبين الباب الاول ، لا سيما حين نصل آخر فصل من الباب الرابع حيث نجد حديثا عن منهج القرآن في الدلالة على وجود الله ووحدانيته .

ورغم أنني قرأت الكتاب في يومين متواليين قراءة متصلة الا أني أحسست بالتباعد الكبير في الموضوع بين بدايته ونهايته . فبينما كنت أشعر في البداية انني بصدد حديث عن اليهود في القرآن اذ بي اخرج من الكتاب بحجج قرآنية تدل على وجود الله ووحدانيته . وكأنني بالمؤلف اخذ يتفلت من اسار موضوعه شيئا فشيئا حتى تركه نهائيا موليا وجهه الى غيره . فبماذا نعلل هذا التصرف ؟ او لم يكن بالامكان تأليف كتابين صغيرين احدهما عن اليهود في القرآن ، والثاني عن حجج

القرآن العقلية في اثبات وجود الله ووحدانيته . يضاف الى ذلك الانقسام بعض الاشارات المعترضة الخاطفة التي أراد منها الكاتب تبيان بلاغة القرآن وفصاحته . وكأني بهذه الافكار المختلفة المتداخلة بين جوانب حديثه قد ابعدته في نهاية كتابه عن هذا الحديث كليا .

وقبل ان اختم هذا المقال أود الاشارة الى ناحية بسيطة استلفتتني في الحديث عن تعليل حب المال عند اليهود ، اذ ارجع المؤلف هذا الحب الى عاملين : الاول عقيدتهم التي تصفهم بأنهم شعب الله المختار ، وهذه الصفة تدفعهم الى السيطرة على الرباط المالي الذي يستطيعون به التفوق على الناس جميعا والثبات بصفتهم هذه امام الشعوب . والعامل الثاني يرجعه الى عقيدتهم المادية التي لا تؤمن بحياة اخرى . وهنا يكمن الاعتراض .

وأبادر الى الاعتراف قبل ذلك بانني لا ازعم لنفسي تضلعا في الامور الدينية ، ولا سيما اليهودية منها ، ولكني اعتقد انه ليس هنالك دين سماوي لا يدفع اتباعه الى الايمان باليوم الاخر . والاديان السماوية متشابهة في هذا المضمار . واذا فربما امكن القول بأن مادية اليهود كادت تنسيهم التفكير في اليوم الاخر . وربما لا يكفينا في هذا الصدد العودة الى الكتب التي تحدثت عن التوراة وحدها كما فعل المؤلف ، وانما يتوجب ان نعود الى التوراة نفسها ، واذا لم نجد فيها ما يتصل باليوم الاخر فلا بد ان يكون قد حذف منه شيء او ناله تغيير ، اذ يستبعد ان ينزل الله ديانة الى فئة من عباده ولا يذكرهم فيها باليوم الاخر الذي هو محور كل دين سماوي .

ثم أن المؤلف يورد في هذا المجال الآية القرآنية التي تخاطب اليهود : « قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنوه ابدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين » ويعقب عليها بقولها : « علل القرآن المانع لهم من تمنى الموت بأنهم يعرفون انفسهم انهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة ، فتمني الموت هو الميزان الذي يعطينا الحكم الصحيح عن ايمان الشخص . فالمؤمن المحسن يتمنى الموت لان وراءه حياة افضل من هذه الحياة » ص ٣٦ .

وهذه الايات وما تلاها من تعقيب تكاد تنقض الرأي الاول بان شريعة اليهود لم تتضمن ذكرا لليوم الاخر ، ذلك لانهم يعتقدون كما يظهر من خلالها انهم سيستأثرون بالدار الاخرة خالصة لهم عند الله ، فكيف يكون هذا اعتقادهم اذا كانوا لا يؤمنون بيوم آخر .

ونخلص في الختام الى ان الكاتب قد بذل جهدا قيما ومشكورا دون ريب في كتابه ، ولكنه لم ينسق موضوعه التنسيق المطلوب بل تداخلت عنده الافكار حتى نقلنا في النهاية هذه النقلة المفاجئة الى مجال جديد من القول لا يكاد يتصل بشيء من الصلة مع الموضوع الاساسي الذي كان عنوان الكتاب تلخيصا له وتعبيرا عنه .

دمشق — **لطفية الشهابي**

•

الادب العربي

باللغة الاسبانية – تأليف المستشرق الاسباني الدكتور خوان فرنيه

ان للحضارة العربية في اسبانيا جذورا عميقة تمتد الى شتى جوانب الحياة الاسبانية سواء أفي الاخلاق او العادات أم في الفكر والادب والفن . فاهتمام الاسبان عظم بكل ما يتعلق بالتراث الثقافي العربي وهم في طليعة الشعوب التي تبعث هذا التراث وتنقده وتحلله وتستخرج منه اروع الطرائف الدالة ابلغ الدلالة على ما كان عليه الفكر العربي في الماضي من خصب وما حققه اليوم أيضا من وثبة أدبية تتمثل في أعمال كتاب العرب المعاصرين البارزين .

ومن دلائل اهتمام الاسبانيين بالشرق العربي وتطوره ، ان المستشرق الاسباني الكبير الدكتور « خوان فرنيه » قد وضع باللغة الاسبانية كتابا اسماه « الادب العربي » وصلتنا نسخة منه فاستعنا على مطالعتها بصديق يحسن الاسبانية . وقبل ان نتحدث عن هذا الكتاب نرى لزاما علينا ان نقدم شخصية مؤلفه . فنقول .. ان الدكتور « خوان فرنيه » هو اديب كبير ، ومستشرق فذ . ولد في برشلونة في ٣١ يوليو ١٩٢٣ . وقد اهتم منذ نشأته بدراسة علوم الفلك والرياضيات ثم اهتم بتاريخ الشعوب الشرقية ، ثم تلقى في كلية الفلسفة والاداب في جامعة برشلونة دراسات في اللغات السامية ، وحذق العربية والعبرية والارامية . وفي عام ١٩٤٦ أسندت اليه وظيفة مدرس في الجغرافيا والتاريخ . ومن عام ١٩٤٧ الى سنة ١٩٥٣ عين استاذا مساعدا للتاريخ الاسلامي والعلم العربي في جامعة برشلونة ثم عين استاذا للغة العربية في هذه الجامعة نفسها عام ١٩٥٤ .

ومن اهم اعمال الدكتور «خوان فرنيه» ترجمة كاملة للقرآن الكريم وترجمة ثلاثة مجلدات من كتاب الف ليلة وليلة . كما وضع طائفة من الدراسات اهمها : « تأثير الثقافة الشرقية في البلاد الغربية منذ القرن الثامن الى القرن العاشر » و « علاقات الاسلام بالمسيحية » و « الاسلام في مراكش » و « المسلمون الاسبانيون » . وهو الان يساهم في تحرير عدة مجلات اسبانية اهمها مجلة « الاندلس » والمجلة الدولية للتاريخ ، ودائرة المعارف الاسبانية . كما انه عضو في المجمع الادبي الملكي في برشلونه . هذا هو الرجل . اما كتابه عن الادب العربي، فقد راعتنا منه دقته واحاطته الشاملة بكل ما يتعلق بالادب العربي قديمه وحديثه .

وقد قسم المؤلف كتابه الى عدة فصول ، تناول فيها الادب العربي في العصر الجاهلي ، وكيف تأثر الادب بعد ذلك بلغة القرآن الكريم ، وكيف كان الادب في عهد بني امية ، والشعر والنثر في العصر العباسي .

وظل المؤلف يتدرج هكذا في الدراسة والبحث حتى انتهى الى النهضة الادبية الحديثة في مصر وفي مختلف الاقطار العربية .

وقد افرد في كتابه فصلا مستفيضا عن النهضة الادبية المصرية ، ثم تناول في نظرة ثاقبة اعمال البارزين من ادبائنا ، فتحدث عن طه حسين وصدق اعترافاته في كتاب « الايام » ، وعن قصة « زينب » التي وضعها الدكتور محمد حسين هيكل ، وعن سلامة موسى ودراساته الاجتماعية ودوره في حركة التجديد في مصر ، وعن المازني واسلوبه الساخر الفكه ، والعقاد وعبقرياته الاسلامية . ثم اسهب في التحدث عن مسرحيات توفيق الحكيم معجبا بها ، وعن شخصية ابراهيم المصري كروائي نفساني عميق ورائد كبير من رواد نهضتنا . ثم اشاد بالجهود الادبية المرموقة التي قام بها طاهر لاشين ومحمود تيمور ونجيب محفوظ ويحيى حقي ويوسف السباعي واضرابهم . كما لم يغفل الشعر في الصور الدقيقة التي رسمها لشوقي وحافظ ومطران وعبد الرحمن شكري وابو الوفا وعلي محمود طه وغيرهم .

واما الاقطار العربية فقد استوفى ادباءها بحثا وتحليلا مميزا منهم شخصيات شكيب ارسلان ومحمد كرد علي وابراهيم اليازجي ونصيف اليازجي ونسيب عريضه ونازك الملائكة . كما تحدث ايضا عن الكاتب الكبير البير اديب صاحب هذه المجلة وعن جهوده الرائعة المتصلة في خدمة الفكر والادب العربي طوال اكثر من ربع قرن من الزمن .

وصفوة القول ان هذا الكتاب القيم الذي وضعه الدكتور « خوان فرنيه » هو اعتراف صريح بالجهود التي بذلها ويبذلها ادباء العربية وتقدير صادق ومنصف لهذه الجهود التي تساهم في التراث الفكري العالمي ، وتماشي ركب الحضارة وتدل دلالة بالغة على اهتمام شعوب الغرب بنهضتنا الثقافية التي ما تفتأ تزدهر وتتألق وتؤتي ابرك الثمار .

القاهرة — **كرم عطا الطويل**